مقدِّمة المُترجِم

تمَّت ترجمة هذا الكتاب عن الصلاة في المعهد الإكليريكي في بيت جالا، ولهذا الظرف معنىً عميق. فالمعهد مدرسة صلاة، والكاهن والراهب رجل صلاة والطالب الإكليريكي طالب حياة صلاة.

يقول المجمع المسكوني إنَّ صلاة الكاهن هي المنبع الذي ينهل منه الإنسان المكرَّس قوّة في الصباح، والمصبّ الذي يجمع عمله ويحتويه في المساء. وإلا انشغل الراعي في أمور كثيرة "بينما الحاجة إلى أمرٍ واحد".

والكاردينال مارتيني من أبرز الوجوه الروحية في كنيسة اليوم، وما يقوله عن الصلاة ينبُع من خِبرة شخصية وكهنوتية ورهبانية أصيلة.

يحوي هذا الكتاب مواعظ ألقاها الكاردينال مارتيني وغيره في مدينة "أفيلا" الاسبانية، وهي مدينة القدّيسة تريزا الأفيلية مُصلِحة الحياة الرهبانية ومعلِّمة الصلاة الأولى ومعلِّمة الكنيسة. لذا يشعر القارئ أنَّ نَفَسَ الصلاة يخترق الكتاب بأكمله.

أردنا من خلال ترجمة هذا الكتاب أن نضع بين يديّ إنساننا المسيحي الذي يبحث عن حياة الصلاة، مرجعاً ثَميناً. والإنسان الذي نقصده قد يكون كاهناً أو راهباً أو طالب كهنوت أو علمانياً. المُهم أن يشعر بالحاجة إلى علاقة متينة ومستمرّة وفاعلة مع الله.

نأمل أن يساهم هذا الجهد البسيط في حركة التجديد الروحي والايماني التي تعيشها كنيسة القدس من خلال السينودس الأبرشي استعداداً ليوبيل الألفين.

الأب مارون اللحام

الله يكفيني

بقلم فرانكو بوفيلّي

"كما يشتاق الأيل إلى مجاري المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله" (مز 42،1) . لتكن هذه الآية من المزمور صورة لما يجب أن يكون عليه كلّ واحد منا قبل بدء هذه الأيام المقدسة.

تعليم "أفيلا" المتين.

اخترنا مدينة "أفيلا" عن قصد. فعلاوة على أسوارها المنيعة الجميلة، والتي تعتبر بحق اعظم أسوار أوروبا، واقلها تأثرا بعوامل التاريخ، وعلاوة على جمال الكنائس التي تزيّن المدينة، جئنا إلى "أفيلا" لنسمع شيئاً من تعليم القديسة تريزا الأفيلية ويوحنا الصليبي. لقد أعلَنتْهما الكنيسة "معلِّمَين"، وبالتالي متكلِّمَين رسميّين عن الحكمة الروحية التي تتميّز بها النفس التي سمحت لسر الله أن يخترقها في الأعماق.

وطريقهما لم يكن سهلا. ولهذا نشعر أنهما قريبان منا. فقد توقفا طويلاً عند الخبرة الروحية التي منحهما الله إياها وعانيا منها وفيها، وكثيراً ما شعرا بالضياع والتردّد في طريقهما الروحي. المهم أنهما كانا في حالة " إصغاء" . وقد أصبحت الصلاة - وهي خبرة لا مثيل لها في حياتهما - المساحة التي سمحت لنعمة الله أن تعمل فيهما من الداخل.

قيل أن "أفيلا" "عتبة الصمت" . ونحن نضع أنفسنا على هذه العتبة ونصغي بصمت داخلي.

شهادات غنية

نريد أن نقبل في ذواتنا الهبة الفريدة لشهادة كلّ من تريزا ويوحنا الصليبي، وأن نتساءل حول خبرة الصلاة. فنحن نعلم أن الصلاة بُعدٌ أساسيّ في حياة الإنسان المسيحي وفي حياة الكاهن. وهذه البعد يكمن في إمكانية الحصول على "تذوّق" خاص للحياة ونشره، كما يكمن في الحرية والفرح في أن نقول لمن نعيش ولماذا نعيش.

نريد - بخبرة الصلاة - أن نصل إلى حرية إبراهيم في التعامل مع الله حين تشفّع أمامه من اجل سكان سدوم وعمورة (تكوين 18، 22 - 33)، والى شجاعة موسى الذي اقترب من العليقة المحترقة وهو يعرف أنه يطأ أرضاً مقدّسة (خروج 3، 1 - 6)، والى رغبة الإنسان في أن يرى وجه الله (مزمور 42،2)، والى ثقة المتضرع الذي يصرخ "من الأعماق" إلى الله (مزمور 130،1)، والى عرفان جميل مريم التي تعظم الرب لأنه "نظر إلى تواضع أَمَتِهِ" (لوقا 1، 47 - 48)، والى غيرة بولس وحماسه الذي يجثو أمام الآب ليطلب أن "يتقوّى إخوتُه بروح الإنسان الداخل" (افسس 3، 14 - 16)، والى تعزية سمعان الشيخ وفرحه حيث يطلب من الرب أن يَطْلِقَ عبده بسلام لأنَّ عينيه أبصرتا خلاص الله (لوقا 2، 29 -30)، ونستطيع الاستمرار إلى ما لا نهاية في الكلام عن شهود من الأمس واليوم، رجالٍ ونساء، متعلمين وبسطاء ... وكلّهم عندهم ما يقولونه عن خبرتهم الرائعة في المثول وجهاً لوجه أمام الله في الصلاة.

بين الرغبة والتعب

لنفكّر في صلاتنا الخاصة. كلٌّ منا يعرف تاريخ صلاته وأشكالها، والروح التي تحييها من الداخل، وأوقاتها المتواترة. صلاتنا صلاة الراعي. ما هي الشهادة التي نعطيها عن صلاتنا ؟ نحن لا نستطيع أن نجمع خيوط صلاتنا بسهولة. فبقدر ما نرغب في اختبار الصلاة بعمق، بقدر ما نشعر أنها صلاة مضّطربة وباردة. نريدها كثيفة ومولعة بحب الله، لكننا نختبرها جافةً ومترددة. نتكلّم مع الآخرين - وبقناعة - عن ضرورتها، لكننا كثيراً ما نكرِّس لها أوقاتاً متقطعة نعيشها دون السلام الداخلي المطلوب.

"يا رب علِّمنا أن نصلي" (لوقا 11،1) . نريد هذا المساء أن نكرِّر هذه الدعاء بتواضع وانسحاق. فنحن نقف في حضرة الله ونشعر بمسافة تفصلنا عنه. وهذا سبب ألمٍ وضياعٍ لنا. "هل أستطيع يا رب أن أقود غيري ما لم أعش بك وما لم تجمعني بك علاقة حميمة، وما لم أتعلم أن اصرخ إليك نهاراً وليلاً" ؟

ما بعد الاضطراب والخوف

نود أن "ننطلق من الله" . استعمل الكاردينال مارتيني هذا التعبير في بدء تقديمه لكتاب السينودس الأبرشي لمدينة ميلانو. نحن نريد - يقول الكاردينال - أن نكرِّس حجّنا هذا للكنيسة المحلية في مسيرتها السينودية كي تعيش في حضرة الله. وان اتخذنا عبارة "الانطلاق من الله" في جوّ "أفيلا" الروحي فهذا يعني أن نعطي لخبرتنا المسيحية دفعةً وزخماً خاصاً.

"الانطلاق من الله" تعبير يفسِّر الأمثال الإنجيلية لهذه الأيام. فكلّنا آتون من جوّ الاضطراب والمعاناة التي تلاحقنا يومياً. لكن هناك في هذا المساء ما يبعث الاطمئنان في قلوبنا. "الله يكفي": هذه عبارة تسمح لنا أن نرى كل شئ في نورٍ جديدٍ وأن نخرج من الاضطراب والتمزق.

وقد تركت لنا تريزا كلمات خالدة في هذه المجال، وُجدت في كتاب صلاتها، مكتوبة على ورقة كانت تستخدمها إشارة في القراءة. ومن شدة تعلقها بهذه الكلمات وضعَتها دائماً نصب عينيها. تقول هذه الكلمات:

"لا يخفينّك شئ ولا يقلقنّك شئ. الكل يذهب والله وحده لا يتغير. الصبر يحصل على كل شئ. من يملك الله لا ينقصه شئ. الله يكفيه".

نريد أن نحفظ هذه الكلمات، وان نحفرها في قلوبنا لتصبح نوراً لطريقنا. هكذا نستطيع أن نقول نحن أيضا مع صاحب المزامير: "في سلام اضطجع وأنام لأنَّك يا رب في أمنٍ وطمأنينة تسكنني" (مزمور 4،9) .

التأمل الأول
أساسيات الصلاة العقلية

بقلم الكاردينال مارتيني

مقدمة

أتتني أيام الحج هذه إلى "أفيلا" دونما تحضير كاف. أشعر أنني غير مستعد لها . فمكان مثل "أفيلا"، يجعلك تشعر بالاضطراب بسبب ما يعنيه من قيم روحية متميزة. وكأنك أمام جبل عملاق لا تعرف من أية جهة تتسلّقه. ولا بد أنه في خبرة تريزا ويوحنا الصليبي الروحية الكرملية ما هو أعلى بكثير من إمكاناتنا نحن.

أشعر بالاضطراب أيضاً لأن موضوع الصلاة واسع وسعَ المحيط. كل واحد "يسبح" فيه كما يستطيع . بيد أن التكلم عنه أمر صعب، كما أن خطر الضياع فيه وارد. وسبب آخر للاضطراب هو الفرق بين نمط الصلاة الرهبانية النسكية، ونمط صلاة الكاهن الراعوية.

كل هذه الأسباب تجعلني أشعر أني لست أهلاً للخوض في هذه الموضوع. لكني أضع ثقتي في صلاة الراهبات الكرمليات من أجلنا، وفي شفاعة تريزا الأفيلية ويوحنا الصليبي واغناطيوس دي لويولا.

بعض المقدمات

سأتكلم في موضوع حديثنا ثم في التساؤلات التي تطرح حول الموضوع ثم في المراجع التي سنستقي منها نوراً وهداية.

- الموضوع.

من الواضح أننا لا نستطيع أن نتواجد في "أفيلا" وأن نتكلم في موضوع غير موضوع الصلاة، والصلاة العقلية بالتحديد. وهذه الصلاة تختلف عن الاحتفال بالافخارستيا وعن صلاة الساعات وعن الصلوات الفردية اللفظية. ففي حين أن الصلاة الافخارستيا وصلاة الساعات عبادات لها مقياس خارجي، وفي حين أنَّ الصلوات اللفظية لها بُعدٌ خارجي مرتبط بالكلام أو

بالحركات، الصلاة العقلية هي دخول في أعمق من كل ذلك، ومن الصعب جدا قياسها أو التحقق منها. مقياسها الوحيد هو الساعة التي لا تحدِّد سوى مدة الوقت دون أن تؤكد أن هذا الوقت كان وقت صلاة أم لا. تُدخلنا الصلاة العقلية في عالم سرّي، تحدث في الصمت الكامل، ولا تخضع لأي اعتبار زمني أو خارجي. الصلاة العقلية اختيار شخصي يكشف عن شجاعتنا أو عن تخاذلنا. تلتقي الصلاة في النهاية مع ما قاله يسوع المسيح " اذهب وأغلق بابك وصلّ إلى أبيك في الخفية" . هذه هي الصلاة التي تتكلّم عنها القديسة تريزا الافيلية.

إذا تغيّب كاهن الرعية عن إقامة القداس، يتساءل الناس عن السبب، ويستفهمون هل هو مريض ويذهبون ويقرعون باب الدير. أما إذا لم يمارس الصلاة الذهنية فلا أحد يلاحظ ذلك. لهذا السبب قلتُ أن الصلاة الذهنية اختيار شخصي يلزمنا في العمق ويكشف عن شجاعتنا أو عن تخاذلنا. فلا أحد يذكّرنا بواجب هذه الصلاة، اللهم إلا ضميرنا الكهنوتي من الداخل.

- التساؤلات

لا بد من بعض التساؤلات. وأوّلها عن ضرورة الصلاة الذهنية. هل هي ضرورية بالفعل؟ ألا تكفي الصلاة اللفظية الإلزامية؟ إلا يكفي الاحتفال بالقداس الإلهي وبصلاة الساعات؟ وتصبح هذه التساؤلات اكثر حدّة عندما نشعر أنه علينا أن نجاهد كي نقوم بالصلاة الذهنية. هل الصلاة الذهنية من الأهمية بحيث نجاهد ونتعب كلَّ هذه التعب للقيام بها؟

والتساؤل الثاني حول كيفية الصلاة الذهنية. هل هنالك طريقة لهذه الصلاة؟ وما هي؟ هل أستطيع أن أعرف هل استفدت من صلاتي الذهنية أم أضعتُ وقتي سُدى؟ أليس ممكنا أن تخرج هذه الصلاة عن الخط الصحيح وان تصبح غير سليمة؟ وان كانت هناك طريقة للصلاة الذهنية فهل من الممكن تعلّمها؟

تبرز هذه التساؤلات في كل مرة نخرج فيها من جو مريح وهادئ (كجو المعهد الإكليريكي) لأن نمط الصلاة الذهنية يتبع بالضرورة نمط الحياة اليومية المضطرب. نكتشف عندها أن الصلاة أمرٌ صعب لا نستطيع القيام به. وقد نفكّر أنها سراب أو قد نظن أننا غير قادرين على القيام بها، وأنها فقط للقديسين الكبار أمثال تريزا الافيلية. ونصل إلى التفكير أن الصلاة هدف مقدس ونبيل وجميل لكننا لسنا في مستواه. وهكذا نخلص إلى التفكير أننا نستطيع الاستغناء عن الصلاة الذهنية، ونكتفي بالقداس وبصلاة الساعات وبما نقرأه عند تحضير مواعظنا الأسبوعية. وهنا تبدأ عملية التبرير: لا وقت لي، سأُصلّي غداً، عندما انتهي من هذا المشروع، عندما انتهي من زيارة العائلات في الرعية .... وهكذا تُهمَّش الصلاة الذهنية .

وسرعان ما نشعر بالنتائج السلبية لهذه العملية: نشعر أن ليتورجيا الساعات ثقيلة، ويصبح الاحتفال بالذبيحة الإلهية فاتراً وروتينياً. ويمتد التعب - الذي هو في الأساس نتيجة ترك الصلاة الذهنية - إلى مختلف مرافق حياتنا، ويُفقِدَنا القوة على ترتيب أمورنا من الداخل وعلى حمل أثقالنا اليومية. لذلك فان قضية الصلاة الذهنية لا تُطرح لذاتها بل لنتائجها. وان فُقدت الصلاة الذهنية في الكنيسة ككل، فان جميع أشكال الصلاة الأخرى لا تلبث أن تفتر وتتجمد في حركات وممارسات خارجية نقوم بها بتعب وملل.

وأظنُّ أن الكنيسة تعيش اليوم هذه الأزمة على مستوى الحياة الكهنوتية والحياة الرهبانية المكرّسة، ولا سيما تلك التي تقوم بأعمال الرسالة. ونحن مدعوون إلى التفكير بعمق في هذه الأزمة التي تهدد كل واحد فينا.

- الينابيع.

+ نستلهم تريزا الافيلية لأنها كانت "ايقونة" عن الصلاة الذهنية، ولأنها وضعت الأسس النظرية للصلاة الذهنية وطرقها ومساراتها وضرورتها وأفراحها ومعاناتها. فقد ساهمت مع القديس يوحنا الصليبي في وضع الصلاة الذهنية في قلب الكنيسة. ومع أن القديس اغناطيوس دي لويولا ساهم أيضاً في نشر عادة الصلاة الذهنية وفي وضع طرقها وقوانينها، إلا أن القدِّيسَين الكرمليَّين هما اللذان نشراها بالتفصيل عقائديا وحياتيا. هما اللذان رسما طرقها وكيفية السير فيها بالتفصيل، مستعيرَين لذلك رَمْزَي صعود الجبل والقصر المتعدّد الغُرَف.

لذا فنحن نستلهمهما ونطلب إرشادهما، ونحن على قناعة أن ثباتنا في صعوبات الرسالة مرتبط بصلاتنا الذهنية، كما يرتبط بها ثباتنا في الإيمان، والثقة أن الله معنا في عملنا الرسول.

+ بطبيعة الحال، صلاة يسوع الشخصية هي أول نبع نستقي منه. فبينما خبرة تريزا الافيلية ويوحنا الصليبي هي خبرة نسكية، فان خبرة يسوع هي خبرة رسولية من الطراز الأول، خبرة عاشها في النهار وفي الليل، عاشها في العزلة وبين الجماهير. لذا يمكن للمسيحي أن يؤسس صلاته على صلاة المسيح. وبالمناسبة فان القديسة تريزا تنهل من صلاة يسوع الشخصية ومن صلاته أثناء قيامه بأعمال الرسالة.

نحن نستطيع أن نصلي لأنَّ يسوع نفسه صلّى. وتستطيع صلاتنا أن تكون رسولية لأنَّ صلاة يسوع كانت رسولية. هو طريق صلاتنا. ونحن نصلي ا ليه ونريد أن نتّحد به أكثر فأكثر.

+ يقدِّم لنا الكتاب المقدس أمثلة كثيرة عن الصلاة الذهنية كالمزامير التي كان معظمها في الأصل صلوات شخصية، من تنهُّد وطلب العون في المرض وطلب الهداية والراحة أو حتى صلوات فرح وتسبيح.

+ مصدر آخر لتفكيرنا في الصلاة الذهنية هو خبرتنا الشخصية في الصلاة، سواء كانت خبرة إيجابية أم مضنية. تتكلم مؤلفات كثيرة عن الصلاة الذهنية على مستوى المبادئ والنظريات، دون الأخذ بعين الاعتبار أن الصلاة الذهنية مرتبطة بشكل أساسي بخبرة كلّ واحد. لا توجد الصلاة

المجردة، بل توجد صلاة فلان أو فلان. صلاتي أنا في هذه اللحظة وصلاتك أنت في تلك اللحظة. لذا نقول أن الخبرة الشخصية في الصلاة محور أساسي ومصدر لا غنى عنه في أي تفكير جدي حول الصلاة. والخوف هو أن تلهينا كثرة الكتب التي تتحدث عن الصلاة عن خبرتنا الشخصية المتألِّمة، عن خبرة الخوف والألم والفشل التي تخترق صلاتنا نفسها. وان أردت الكلام عن خبرتي الشخصية في الصلاة بعد ستين سنة، أقول أنني ابدأ كل يوم من جديد ومن درجة الصفر.

- " نفسي عطشى إلى الله" -

- صورة يسوع في الجسمانية.

اجمل صورة كتابية لصلاة يسوع المسيح الشخصية والصعبة هي صلاته في الجسمانية:

"ووصلوا إلى ضيعة اسمها جتسمانية، فقال لتلاميذه: "اقعدوا هنا بينما اصلي". ثم مضى ببطرس ويعقوب ويوحنا وجعل يشعر بالرهبة والكآبة. فقال لهم: "نفسي حزينة حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا". ثم ابعد قليلا ووقع إلى الأرض يصلي لتبتعد عنه الساعة، إن أمكن الأمر، قال: " أبّا، يا أبت. انك على كل شئ قدير، فاصرف عني هذه الكأس. ولكن لا ما أنا أشاء بل ما أنت تشاء" . ثم رجع فوجدهم نائمين، فقال لبطرس: " يا سمعان، أتنام؟ ألم تقوَ على السهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تقعوا في التجربة. الروح مندفع، وأما الجسد فضعيف". ثم مضى ثانية يصلي فيردد الكلام نفسه. ورجع أيضا فوجدهم نائمين لان النعاس اثقل أعينهم، ولم يدروا بماذا يجيبونه" (مرقس 14، 32 - 40).

+ تكررت كلمة " يسوع يصلي" أربع مرات. ثم ذُكرت مرادفات لكلمة الصلاة: "اسهروا"، "ألمْ تستطيعوا السهر (معي) ساعة واحدة". ثم "اسهروا وصلوا"، والسبب: "لئلا تدخلوا في التجربة". يجب أن نصلي لأن "الروح مندفع وأما الجسد فضعيف".

+ ثم يُشار إلى وضع يسوع في صلاته. "وقع على الأرض". والى مضمون الصلاة " يا أبت انك على كلِّ شئ قدير، فاصرف عني هذه الكأس. لكن لا ما أنا أشاء بل ما أنت تشاء" . والى الصعوبات التي تحول دون الصلاة: نَعَسْ بطرس ويعقوب ويوحنا الشديد، عدم اهتمامهم، نفورهم من الصلاة، عدم فهمهم. وهي نفس صعوبات اليوم التي تقول: لا ضرورة للصلاة، لا أجد لذة في الصلاة، لماذا التعب في الصلاة...

+ أخيرا هناك الأمور المرافقة للصلاة: الخوف والاضطراب والحزن والنفور. وبطرس ورفقاؤه لا يشعرون بالخوف ولا بالحزن ولا بالتعب، لأنهم لا يصلّون. يسوع وحده يختبر كل ذلك لأنه يصلي.

البُعد الشخصي في الصلاة بارزٌ في النص المذكور بشكل واضح. فهي صراع إيمان. إيمان سهل في بعض الأحيان لكنه يزداد صعوبة كلَّما ازداد عمقاً. ونحن، كبطرس، لا نفهم ضرورة الصلاة، ونظن أننا نستطيع الاستغناء عنها، لأننا لا نفهم معنى الأزمنة ولا شدَّة التجارب. وعندما ستفاجئ التجارب بطرس ورفقاءه فانهم سيقعون فيها.

الصراع في سبيل الصلاة بلغة اليوم

أُريد أن أدخل في عمق السؤال الأساسي لهذا التأمل الأول. لذا أريد أن أعرض نصَّا عصرياً للصراع في سبيل الصلاة. وهذا النص هو للأخت هنركيتا الفييري Enrichetta Alfieri والتي باشرنا بدعوى تطويبها في 1995/12/30. عاشت هذه الراهبة سنوات طويلة في سان فيتوريه San Vittore، وكان عملها مساعِدَةً في السجن (توفيت عام 1951) . تمَّ القبض عليها ووُضعت في زنزانة صغيرة لأنها ساعدت بعض السجناء السياسيين (عام 1944) في توصيلهم بعض الرسائل. ومن هناك كان من المفروض أن تُنْقَلَ إلى غُرف الغاز. وفيما يلي ما تقوله هي نفسها وهي تسترجع يوم توقيفها في 23 أيلول 1944:

"بعد جهود كثيرة دامت كل ساعات بعد الظهر، (لاحظ كل بعد الظهر) لأتلو صلاة قصيرة (لاحظ التعب والعجز)، ركعتُ وتلوْتُ السبحة الوردية كاملة، وتأمَّلتُ أسرار الألم بشكل فريد لم يسبق له مثيل في حياتي. ومنذ ذلك

الحين أصبحت الصلاة والتأمل شغلي الوحيد وقوتي في زنزانتي. أنا التي قلت اكثر من مرة للسجينات إنهن يستطعن قضاء وقتهن كلّه في الصلاة، ها أنا أطبِّق ما قلت. كم هي كبيرة نعمة الصلاة!"

لنفكر قليلاً. تجد الراهبة نفسها في وضع صعب جداً. سجن، خوف، رفض الظلم، صراخ من القلب، اضطراب داخلي. تريد أن تخرج من اضطرابها الداخلي وتستلقي بين يدي الله. لكن ظلمة أفكارها لا تسمح لها بذلك "حاولت الصلاة فلم أقدر". وكأنَّها في الجسمانية!. طَلَبَت الصلاة وهي تظنّ أنها ملجأ للقلب، ومكان تجد فيه إرادة الله وتنعم فيه بالسلام. وتكتشف أنَّ عليها أن تخترق جداراً سميكاً، صحراء قاحلة، أمواج البحر الأحمر. الجهد هنا مصبوب على الإيمان أن الصلاة ممكنة عمليا. لذا تهتم بأن تجد صيغة للصلاة أو منهجا أو موقفا. وتجدها في النهاية وتنعم بثمارها. وتصلي المسبحة لا كصلاة تقوية بل كتأمل عميق.

السؤال الجوهري

هذا هو السؤال الذي أريد طرْحَه. ماذا أريد عندما اطلب أن أتعلم الصلاة؟ عندما أقول: "يا رب علِّمني أن اصلي" أو "كم احبّ أن أعرف كيف اصلي!" . ماذا يقصد المؤمنون عندما يطلبون الكلام عن الصلاة الشخصية أو تعلّم الصلاة؟ عن ماذا يبحثون عندما يبتاعون كتباً تتكلم عن الصلاة الذهنية؟

أحاول أن أعطي ثلاثة أجوبة ممكنة.

= نحن - والمؤمنون - نأمل أن نصل من خلال الصلاة إلى حالة من الراحة الروحية، من ضبط النفس ومن السلام الداخلي. نريد الوصول إلى وحدة في داخلنا. وندعو ذلك صلاة. فنحن نشعر في داخلنا برغبة جامحة في الوحدة الداخلية ونشعر أن الصلاة طريق يقودنا إلى ذلك. حتى الأخت هنريكتا كانت تبحث عن قبول قدَرها وعن الخروج من قلقها ومن اضّطرابها.

إن هذه الرغبة لا تكفي لأنها ليست بحثا مباشرا عن الله. فهذه الرغبة رغبة نفسيّة وناقصة، ولو أنَّ فيها شيئاً من الحقيقة.

= هناك - والموضوع اعمق مما قلنا أولاً - رغبة في البحث عن إرادة الله

وفي إتباعها. وهذه الرغبة موجودة في صلاة يسوع في الجسمانية. أي صلاة نتلوها - وصلاتنا تترجم في اكثر من شكل، وأكثرها كمالاً الصلاة الليتورجية والاحتفال بالافخارستيا - تتضمن رغبة جامحة في الاتحاد بإرادة الله، لأننا نجد سلامنا في ذلك. " لتكن مشيئتك لا مشيئتي". كل رغبة صادقة في الصلاة فيها شئ من "نَفَس" يسوع. الدخول في الصلاة يعني عندئذ الامتثال لمشيئة المولى التي تنير حياتنا وتوحّدها.

= الجواب الثالث هو توضيح للثاني وتكميل له. فالرغبة في الصلاة تحمل في ثناياها النية الصادقة في الامتثال لمشيئة المولى بشكل دائم لا متقطِّع. وهذه الرغبة الداخلية هي التي تنعش روح الصلاة فينا وتجعلنا نكتشف عمقها. لأن الروح هو الذي يصلّي فينا، الروح يحقق فينا الوحدة الداخلية وهو الذي يثير فينا الرغبة في هذه الوحدة. وهذا الروح هو الذي قاد الأخت هنريكيتا في السجن، وهو الروح الذي رفضه بطرس ويعقوب ويوحنا لأنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معه، ولا يدركون مدى أهميته. ومع ذلك هذا هو الروح الذي يتكلّم عنه يسوع بوضوح: "يا أبت لا كَما أُريد أنا بل كما تريد أنت"، "أشعر في داخلي نفورا مما تريد أنت، لكن ليكن ما تريد".

أنا متأكد أنه يجب أن نصل إلى الصلاة الشخصية بهذا العمق: "ظمِئَتْ نفسي إلى الله، الإله الحي" (مزمور 42، 3). الظمأ إلى العلاقة الشخصية الُمحِبّة مع الله. ظمأ لا ينعم بالسلام إلا إذا وجد الراحة في الله. من هنا الصلاة الشخصية هي التي تكشف لنا باستمرار عن الرغبة العميقة بأن نكون تحت نظر الله، وتجعلنا في شوق دائم للاتحاد به اتحاداً كاملاً.

يقول القديس بولس: "تلقّيتم روحاً يجعلكم أبناء وبه ننادي: يا أبتا" (روما 8،15). ومناداة الروح هذه سببُها أن الروح يريد أن يصبّ ملأه فينا. تقوم الصلاة الشخصية على أن نعطي نَفَساً وصوتاً ومساحةً لصوتِ الروح القدس هذا في داخلنا.

الروح القدس هو البادئ في أية صلاة وهو الذي يضعنا في خط الاتحاد بالله. وما البُعد التأملي في الحياة سوى البحث عن التوجه نحو الله المطبوع في داخلنا، والذي نكتشفه أفضل بواسطة الصمت. وإن كان الناس يبحثون عن معلِّمي صلاة فلأنهم يعلمون أن هؤلاء المعلّمين يعلّمون الحياة لا الصلاة فقط. يعلّمون كيف نصل إلى الله، كيف نصل إلى أن يكون الله ألأوّل في كل شيء، يعلّمون ما هو أساسي في الوجود.

لذا يجب أن نبتدئ من الله، من الله الموجود في داخلنا، كما كتبتُ في مقدمة الرسالة التي تتضمن قرارات السينودوس الأبرشي. أن نبتدئ من الله الموجود فينا، لا سيما في الصلاة المطمئنّة.

وما قلناه عن البُعد الأساسي في الصلاة الفردية يشكل عنصراً هامّاً في كل صلاة ويعطي حياة للصلاة الليتورجية وللإفخارستيا، بصفتها دخول ومشاركة في قوة الروح الدافعة.

اقتراحات للتفكير الشخصي

بعد أن حاولت الإجابة على السؤال: "عمّا أبحث عندما أستعلم كيف اصلي"، اعرض عليكم فيما يلي بعض النقاط للتأمل الشخصي:

* هل صلاتي سهلة؟ هل أعتبر أن صلاتي مشكلة؟ أم أنها ليست مشكلة لأني في الأساس لا اعتبر الموضوع مهماً؟
* كيف أشعر بضرورة الصلاة الشخصية؟ وهل أشعر بضرورتها ؟
* هل أشعر بتعب عندما أحاول أن أعيش إرادة الله وأتذوقها في حياتي اليومية؟ كيف اعبّر في صلاتي الشخصية عن اتحادي بإرادة الله؟ عن الوحدة والتناغم في حياتي
* هل حدث أن عشت في الماضي حياة الاتحاد بمشيئة الله بطريقة أفضل مما أعيشه اليوم من خلال صلاتي الشخصية؟ هل تقهقرت صلاتي؟ لماذا؟ هل تحسَّنت؟ بفضل ماذا؟

أعطنا يا رب أن نسمع في داخلنا صراخ "ابّا، أيها الآب" . أعطنا أن نختبر العطش إليك، العطش إلى الإله الحي الذي يعيش في داخلنا، هذا العطش الذي كثيرا ما يثقله النعاس الذي أثقل عينيّ بطرس في الجسمانية. أعطنا أن نعرف كيف نسهر اليوم وكلّ يوم مع ابنك يسوع.

الصلاة العفوية

الصلاة الصعبة - الصلاة / الهبة

"يا رب علّمنا أن نصلي".

"وكان يصلي في بعض الأماكن، فلما فرغ قال له أحد تلاميذه: "يا رب علمنا أن نصلي كما علَّم يوحنا تلاميذه." فقال لهم: " إذا صليتم فقولوا..." (لوقا 10/ 1 - 2).

نريد أن نبدأ بالتفكير في طلب الرسل: "يا رب علِّمنا أن نصلي". لكن يجب أولاً أن نركّز على بعض العناصر التي وردت في النص. نجد من جديد أن يسوع يصلّي، ويصلّي بعمق. يصلّي بشكل يشعُّ شيئاً ما على الآخرين، ويولِّد فيهم الرغبة في المشاركة في هذا الكنز الخفي. لذا يطلبون منه أن يدخلهم في هذا العالم الروحي الذي يعيشه. وكان يوحنا المعمدان قد علّم تلاميذه تقليد الصلاة وممارستها.

يقبل يسوع طلب التلاميذ، ويعطيهم تعليمات حول الصلاة لا تنحصر في تعليم صلاة "أبانا" (2 - 4). فهو يضيف في الآية 5 مَثَل الإلحاح في الصلاة: "من منكم يكون له صديق فيمضي إليه عند نصف الليل...". ثم يتكلّم يسوع ابتداءً من الآية 9 عن فاعليّة الصلاة مؤكِّدا على محتواها وأشكالها الخاصة.

وكان يسوع قد سبق وأجاب بشكل أقل وضوحا على سؤال مشابه في الفصل السادس من إنجيل القديس متى، عندما دعا إلى عدم التشبّه بالفريسيين في الصلاة "كي يراهم الناس"، بل ادخل غرفتك وأغلق الباب وصلِّ إلى أبيك في الخفية وأبوك الذي يرى في الخفية يجازيك. ثم حثّ على عدم الإكثار من الكلام في الصلاة كما يفعل العشارون، بل "صلوا واغفروا" . (آية 5 - 14) . وبالفعل، الصلة بين الصلاة وممارسة الغفران أمرٌ مهم.

كلُّ عمل القديسة تريزا الافيلية هو محاولة الإجابة على هذا السؤال: "يا رب علِّمنا أن نصلي" . وبينما يعطي يوحنا الصليبي جوابا عقائديا، تعطي تريزا من جهتها جواباً عملياً. تقول في مقدمة كتاب حياتها: "ألْزَموني وأعطوني ما يكفي من صلاحيات لأصف طريقتي الخاصة في التأمل".

نريد في هذا التأمل أن نفسِّر جملة الرسل: "يا رب علِّمنا أن نصلي"، وأن نبحث عن نهج الصلاة الذي نستنتجه من خبرة تريزا. تتكلم القديسة تريزا عن ثلاث مراحل أو أوضاع للصلاة الشخصية: الصلاة العفوية والصلاة الصعبة والصلاة/ الهبة.

الصلاة العفوية

نقصد بالصلاة العفوية الصلاة التي تنبع من الداخل دونما أي جهد أو نهج مدروس. أساسها ما نعرفه من وحي الله. وكأنها جواب غريزيّ على ما يوحيه لنا. وهذه الصلاة موجودة في كل إنسان، ولو بأشكال مختلفة. وقد مارستها تريزا منذ نعومة أظفارها. ستكتب فيما بعد وتقول أنه كان لها لقاء يومي مع المسيح في بستان الزيتون، قبل أن تدخل حياة الرهبنة:

"أنا متأكدة أن هذه الخبرة ساعدتني في تقدمي الروحي. ذلك أني كنت أمارس التأمل قبل أن أعرف ما هو التأمل."

وتعطي أمثلة أخرى عن هذه الصلاة العفوية، نذكر منها على سبيل المثال التفكير الطويل مع أخيها رودريجو حول السعادة الأبدية:

"كنا نتلذّذ في تكرار كلمة "دائما، دائما، دائما". وقد أراد الله أن يؤثِّر ذلك فيّ بحيث صمَّمت منذ ذلك الحين أن لا أترك طريق الحقيقة".

كلمات قوية هي تلك التي تتكلم عن "طريق الحقيقة". وهذه الكلمات هي التي ستختصرها تريزا في حكمة " كل شئ يذهب... الله يبقى ... الله لا يتغير".

ولا شك أن حياة كل واحد منا غنيّة بخبرات مماثلة من الصلاة العفوية.

الصلاة الصعبة

بدأت تريزا تشعر بصعوبات جمّة في صلاتها عندما أرادت المرور من الصلاة العفوية السهلة ذات المد والجزر، إلى صلاة أكثر منهجية واستمرارية. وهي تصف بوضوح نوعين من الصعوبات.

* **صعوبات نفسية**: وهي ما تدعوه تريزا عدم القدرة على التفكير. كانت عاجزة عن أن تتخيّل أيّ شئ أو أن تفكر في أي شئ وهي في حضرة الله. عاجزة عن أن تتأمل. وما كان يزعجها بشكل خاص هو عدم ترتيب أفكارها، بحيث أنها كانت تقول إنَّ تشويش أفكارها كان يحول دوما دون تركيزها في الصلاة. وكانت تشبّه هذا التشويش بدوران حجر الرّحى، أو بوجود لص مزعج داخل البيت. كل ذلك كان يجعل جهدها في الصلاة أمراً مُتعباً جداً، ويحصر صلاتها في هنيهات قصيرة متقطعة. وبالحقيقة، الوقوع في ظرف كهذا - ظرف عجز، ولو جزئي، عن الصلاة - هو أمر آلمها كثيرا. تقول:

"حصل معي كثيراً ولمدة سنوات أن تتركز رغبتي في الانتهاء من ساعة السجود، وانتظار دقّات الساعة أكثر منها في بذل الجهد في الصلاة. وكثيراً ما كنت افضّل القيام بعمل توبة مكلف على القيام بساعة التأمل".

"لقد كانت قوة الشيطان وقوة عاداتي السيئة عنيفة في محاولة إبعادي عن الصلاة. وكنت أشعر بحزن عميق عند اقتراب ساعة الصلاة - حزن يشبه حزن يسوع في بستان الجسمانية- لذا كان يجب على أن استعمل كلّ شجاعتي المعهودة لأدخل في الصلاة."

كانت تريزا إذاً تتألم كثيرا من هذه الصعوبة النفسية. كانت تشعر بثقلها. لذا كانت تبحث عن مساعدة. وتقول أنها حاولت الاستعانة بوسائل عدة للوصول إلى هذا الهدف، وذلك خلال عشرين عاما من التعب. عشرون عاما من القلق والعذاب - منها سنة ونصف تركت فيها الصلاة لتعود إليها فيما بعد باذلة جهوداً جبّارة- تقول على سبيل المثال:

"خلال هذه السنوات الطويلة لم أستطع مرة واحدة - عدا بعد المناولة - أن ابدأ الصلاة دون الاستعانة بكتاب لأني كنت أخاف أن أكون حاضرة وغائبة في صلاتي، كمن يحارب جيشا بأكمله (جيش الأفكار والتشتيت)."

ثم تقول:

"كنت أجد تعزية في الكتاب الذي كان بمثابة رفيق لي، وترس يحميني من هجمات أفكاري. كنت أشعر بالجفاف الروحي دون الكتاب، لكن بدأت اشعر مع الكتاب بعذوبة روحية وبدأت نفسي تتّجه نحو الله".

كانت جهود تريزا مكلفة وأعطت ثمرها، ولو أن تريزا كانت تعتبرها مشتَّته وغير مرتّبة، عندما وصلت إلى الاتحاد الكامل مع الله. في كل الأحوال، كانت تريزا تتعب في صلاتها ولا شك أن صلاتها كانت صعبة.

* لكن صعوبتها الكبرى كانت في اكتشافها ازدواجية معينة في حياتها مقارنة بتأملها. كانت تريزا على وعي كامل بمتطلبات الله تعالى وبمتطلبات ضميرها، متطلبات لا تقبل أية مخالفة ولو صغيرة. وكانت تريزا عاجزة عن عيش هذه الحياة المنسجمة مع صلاتها. كانت تعترف بإضاعة الوقت وبتعلقها بعواطف داخلية وبصداقات خارجية كانت تقيّد حريتها. فبينما كانت ترغب في أن تلتقي بالله، لم تكن دوما ترغب في مضمون هذا اللقاء الذي هو الانسجام التام مع مشيئته تعالى. وهذه الازدواجية كانت تعذّبها داخلياً. وفي حياتها هذه المضطربة والمزدوجة، تضحي الصلاة نزاعاً ومعركة:

"كنت أسقط ثم أنهض. لكني كنت أنهض بضعف يجعلني أسقط ثانية. كنت في أسفل درجات الكمال (...) حتى أن حياتي أصبحت من أكثر أنواع الحياة ألماً. ذلك بأنني لم أكن أشعر بالفرح مع الله ولا مع العالم. فعندما كنت اشعر بالفرح في العالم كنت اشعر بواجبي نحو الله واتألم من ذلك. وعندما كنت مع الله كان حبي للعالم يشتّت أفكاري. كانت معركة مؤلمة جداً ولا أعلم كيف استطعت أن احتملها شهرا واحدا، لا بل سنوات."

حتى أن تريزا مرّت بفترات كادت فيها أن تهجر الصلاة إلى الأبد:

"اشعر بخجل كبير في العودة إلى الله وفي الاقتراب منه من خلال الصلاة والصداقة الحميمة".

عاشت تريزا بشكل قوي الازدواجية التي نعيشها نحن أيضا، ولو بدرجات متفاوتة، بين ما نقوله لله في صلاتنا، وما نعيشه في الواقع في حياتنا اليومية. والشك المؤلم الذي كانت تعيشه تريزا يتلخّص في التفكير انه إن لم تكن حياتها صادقة لا يمكن أن تكون صلاتها صادقة. هذه هي أكبر تجربة مرَّت بها.

كيف كانت تريزا ترى نفسها في هذا الوضع المؤلم داخلياً؟ لم تكن قادرة على التفكير تفكيراً عميقاً في الكتاب المقدس، لكنها كانت تضع نفسها مكان الأشخاص الذين يتكلم عنهم الكتاب المقدس، والذين تشعر بوجه شبه بربطها بهم: مريم العذراء تحت الصليب، مريم المجدلية، المرأة السامرية، بولس ساعة ارتداده، أيوب البار. تقول تريزا في كتاب "حياتها":

"كم مرة اذكر الماء الحي الذي ذكره الرب للمرأة السامرية! كنت احب دوما هذه المقطع من الإنجيل - حتى في طفولتي - بالرغم من إني لم أكن أفهمه كما أفهمه اليوم. وكثيرا ما كنت أتضرع إلى الرب أن يعطيني هذا الماء الحي. وكانت في غرفتي لوحة تمثِّل يسوع بالقرب من البئر وتحت اللوحة هذه الكلمات: "يا رب أعطني من هذا الماء" .

كانت تعود دوما إلى حياتها وتشعر أنه تنقصها الوحدة. لذا كانت صلاتها المتواصلة إلى الله أن يعيد الوحدة إلى حياتها بوساطة الصلاة. تمثّل الصلاة الصعبة عشرين سنة من حياتها. وفي لحظة ما تشعر تريزا أن مرحلة ما انتهت في حياتها وأنها عبرت إلى مرحلة ثانية.

"دخلْتُ المعبد يوماً، فوقع نظري على تمثال كان قد وُضع في الكنيسة انتظاراً لتطواف ديني أثناء احتفال كبير كان سيقام في الدير. كان تمثال يسوع المسيح مليئاً بالجروح (نفس التمثال الموجود حاليا في دير التجسد) . تأثّرْت جداً من رؤيته لأنه يُظهر للحسّ فظاعة الآلام التي تكبّدها من أجلنا.(...) سجدت أمامه أذرف الدموع وأتوسَّل إليه أن يساعدني كي لا أهينه أبداً".

هذا المشهد يختلف عن غيره. فقد حدث قبلاً أن شعرت بعاطفة نحو يسوع وبتأنيب ضمير وبدافع روحي داخلي. لكن:

"سجودي أمام التمثال المذكور ساعدني أكثر من أي وقت آخر لأني تركت وقتها كل ثقة في نفسي وأوكلت أمري إلى الله وحده".

هنا نجد السبب الرئيس. فصلاة ترزيا الصعبة حصّلت لها أخيراً نعمة التطهير الكامل من الاعتماد على الذات أهَّلتها للاعتماد على الله وحده:

"أظن أني قلت له أني لن انهض من سجودي إلا إذا أعطاني ما أريد".

هكذا نفهم سبب الصلاة الصعبة. لم تكن سوى مسيرة تطهير إيجابية. وان لم تفهم تريزا معناها منذ البداية، إلا أنها كانت وسيلة سرية، استطاع الله من خلالها أن يطهِّر نفسها. وهنالك وجه شبه كبير بين ما تقوله ترزيا عن خبرتها في الصلاة الصعبة، وبين ما حدث لشخص آخر قريب جدا من كنيسة ميلانو (القديس اغسطينوس). تتحدّث تريزا كيف بدأت تقرأ اعترافات القديس اغسطينوس التي لم تكن تعرفها من قبل، والتي تعتبرها نعمةً لحياتها:

"عندما وصلت في القراءة إلى نصٍّ ارتداده والى الصوت الذي سمعه في البستان، شعرت كأنني اسمع نفس الصوت منذ زمان طويل. وأمضيت وقتاً طويلاً اذرف الدموع، ونفسي تعيش صراعا داخليا دمويا. يا رب، كم تتألم النفس التي تفقد الحرية التي تجعلها سيدة أمرها...! كيف استعطت أن أعيش كل هذه الوقت في اضطراب البعد عنك؟ تبارك الله الذي أبقاني في الحياة وأخرجني من موت محتوم..."

اختبرت تريزا أن الارتداد هبة وان الصلاة أيضاً هبة، حتى لو أنها لم تستطع منذ البداية أن تعبِّر عن ذلك تعبيراً سليماً ومتكاملاً.

الصلاة / هبة

لا أريد التوقف طويلا عند هذه المرحلة من الصلاة، لأنها تتضمّن كل ما تبقّى من حياة القديسة تريزا، ثم لأنَّ هذه الخبرة عن الصلاة/ الهبة لا تعنينا مباشرة. أريد فقط أن أقول أن الصلاة/ الهبة هي الشعور بحضور الله. وبالفعل عندما تتكلَّم القديسة تريزا عن بداية طريقها الجديد في الصلاة، تُرجِع كلَّ شيء إلى خبرة أساسية واحدة هي "حضور الشخص الإلهي"، حضور الله وحضور يسوع المسيح. فبينما كانت في السابق تحاول أن تتخيّل المسيح موجوداً، تشعر به الآن حاضراً. نجد في حياتها في بداية الفصل العاشر:

"كان قد حصل لي في السابق، لفترات قصيرة، أمر مشابه لما سأقوله الآن (الخبرة إذا سابقة لشعورها القوي بحضور الله). فبينما كنت أحاول في صلاتي أن أضع نفسي عند قدمي يسوع المسيح (لاحظ وجود التشتت الخارجي) وبينما كنت اقرأ (لاحظ استعمال الكتاب)، كان ينتابني من وقت لآخر شعورٌ قوي بحضور الله، شعور جعلني لا أشكّ لحظة واحدة أني في الله وان الله فيَّ."

ومن هذه اللحظة فصاعداً، أصبحت صلاة تريزا، في مختلف درجات الحياة الصوفية وتطوراتها، تكثيفاً لهذا الحضور الإلهي، حتى لو أن تريزا لن تترك أبداً بعض أشكال الصلاة البدائية. لا اجرؤ على التكلم عن الصلاة/ الهبة اكثر من ذلك لأنَّ تريزا نفسها تقول أن مَنْ لم يختبر هذا النوع من الصلاة لا يستطيع أن يفهمَها.

لكننا نريد أن نتساءل: هل هو ملكُ الجميع هذا الإحساس بحضور الإله الذي يهب الوحدة والامتلاء من الله، والسلام والفرح العميق، وضبط الذات ووحدة الحياة التي نراها في تريزا بعد "ارتدادها"؟ لا شكّ أن التصوّف هبة لا حق لأحد فيها. هبة مجانية من الله ولا نستطيع القول أن الله يهبها لعدد قليلٍ أو كثيرٍ من الأشخاص. يقول بعض علماء الروحانيات أن الله يهبها للكثيرين لكن الكثيرين لا يستجيبون لها. لا نريد أن نخوض في الموضوع، إنما ما أريد قوله هو أن خبرة الوحدة المذكورة موجهة إلى الجميع حتى لو لم يكن الجميع مدعواً إلى مستوى الصلاة الصوفية. فالرغبة في وحدة الحياة

التي كانت تريزا تتوق إليها، هي نفسها التي نبحث نحن عنها، وبالخصوص نحن الكهنة والرسل، وجميع من هم مدعوون إلى الاتحاد بمشيئة الله. وهنا قد تختلف طرق وأشكال هذا الحضور الإلهي، لكن الهدف واحد، ألا وهو تطابق إرادتنا مع إرادة الله تطابقاً مقبولاً وفرحاً وممتعاً. ذلك أن زبدة أي صلاة نجدها في كلمات الصلاة الربية "لتكن مشيئتك". مشيئة الله وهبة الله ذاته عن محبة، الآب الذي يهب ذاته في الابن وفي الروح. وتقوم الصلاة التي توحّدنا بالله بأن نحبّ هذه المشيئة التي يحدّدها الواقع اليومي.

خاتمة

تعلُّم الصلاة أمر بطيء للجميع، وكان بطيئا جداً في حياة القديسة تريزا. ما يجب ألا ننساه أن العشرين سنة التي عاشتها في الصلاة/الهبة ما هي الا استمرار للعشرين سنة التي عاشتها قبلا في خبرة الصلاة الصعبة. فالصلاة التي هي هبة من الله، هي تكميل لنمط الصلاة المُضنية وشكلها. وكون الصلاة/الهبة تشكِّل منعطفاً جديداً في حياة الصلاة، لا ينفي كونها استمراراً لجهود سابقة تبحث عن الاتحاد بمشيئة الله، وعن التواصل مع المسيح ومع الآب. لذا عندما نتألّم من صعوبة الصلاة ومن ازدواجية الحياة، يجب أن نعلم أن ثمّة معنى لألمنا ولجهدنا .

هذا هو ما يجب أن نتعلّمه: أن نقبل البطء اللازم لتعلّم الصلاة المسيحية. أن نقبل أن البطء يعني التمرين والتفكير وإعادة الكرّة أكثر من مرة، والالتجاء إلى مُرشد روحي متمرّس. أن نعلم أن تعبنا مهدَّد في اكثر من شكل، خصوصاً فيما يوحيه لنا الشيطان من شكّ." : ما المعنى من ذلك؟ "، "ما الفائدة؟ " "أليس كل ذلك عبثاً؟". ليتساءل كلّ واحد منا عن السبب الذي يجعل صلاته صعبة ومشكوكاً فيها. ما مدى استعدادي اليوم لأضع نفسي مجدداً بين يدي الله ولأحاول مرة ثانية طريق الصلاة الصعبة، مع العلم أن الوقت الذي مضى له فائدته لأنَّ نعمة الله تخترقه.

تشويهات الصلاة
التأمل الثالث

" متى صليّتم، لا...". هذا هو موضوع تأمّلنا الثالث. صعوبات الصلاة الشخصية وتشويهاتها، التي قد يكون سببها النقص أو الإفراط (المغالاة). فنحن نتحرّك بين نقيضين هما اليأس والادّعاء. سنحاول التكلّم عن هذين النقيضين والبقاء في الوسط، سالكين في تلك الطريق التقليدية التي تقوم على " القراءة " ثم "التأمل" في "القراءة". سنركِّز على نصوص انجيلية يحذّر فيها المسيح من تشويهات الصلاة الشخصية. ثم سنتساءل في "التأمل" عن أكثر تشويهات اليوم خطراً على صلاتنا.

القراءة (متى 6، 5-15).

"متي صليتم، لا..." الآية الخامسة من الفصل السادس من انجيل القديس متى. وفيها يصف المسيح - من خلال موعظة الجبل - الصفات السلبية التي تجعل الصلاة غير مقبولة عند الله.

الرياء

"وإذا صلّيتم فلا تكونوا كالمرائين، فإنهم يحبّون الصلاة قائمين في المجامع وملتقى الشوارع، ليراهم الناس. الحق أقول لكم إنهم أخذوا أجرهم." (آية 5) .

يشدّد يسوع على أنَّ الرياء هو التشويه التقليدي للصلاة الرسّمية أو المِهَنية، الصلاة التي يقوم بها المرء أمام غيره. الخطر هو في الاكتفاء بالمظهر، او في التركيز فقط على المظهر. عندها تصبح الصلاة نجاحاً خارجياً فقط. ونجد نقيض هذا الخطر الذي يواجهه من كان مدعوّاً إلى الصلاة في الساحات العامة أو الكنائس والدورات الاحتفالية: "أما أنت فإذا صليت فادخل حجرتك واغلق عليك بابها، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفية وأبوك الذي يرى في الخفية يجازيك". لا يطلب يسوع أن نترك الصلاة العامة بقدر ما يطلب أن نركِّز على الصلاة الشخصية والخفيّة التي تعطي الروحَ للصلاة العامة.

الوسواس

التشويه الثاني هو الوسواس.

"وإذا صليتم فلا تكرِّروا الكلام عبثاً مثل الوثنيين، فهم يظنّون أنهم إذا أكثروا الكلام يُستجاب لهم. فلا تتشبّهوا بهم، لان أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" (7-8).

يركِّز المسيح هنا على اعتبار الصلاة شيئا أو أداة والاكتفاء بذلك. وبالفعل فقد سبق وقلنا أن الصلاة أداة: أداة للسلام وللطمأنينة والبحث عن معنى للحياة. لكن اعتبار الصلاة أداة لا تُخطئ لنيل ما نحتاج إليه، أمرٌ يحطّ من قيمة الصلاة. أركِّز هنا على أشكال أو "فنون" حديثة للصلاة يكثُر الكلام عنها في الكتب. وهذه "الفنون" لا تعتبر نفسها أداة للوصول إلى الصلاة، بل طرقاً أكيدة للوصول إلى مشاهدة الله. وأتكلم بالذات عن بعض طرق الصلاة الشرقية التي أصبحت هدفاً للصلاة لا وسيلة. تنسى هذه الفنون أن الصلاة هي قبل كلِّ شئ تسليم الذات إلى الله، واتحادٌ بمشيئته وتخطِّي الذات بصحبة الله.

ونقيض هذه الصلاة " الوسواس" هي ما ندعوه "صلاة الثقة" . " أبوكم السماوي يعلم ما تحتاجون إليه". الصلاة هي أن نرتمي في حضن الله، لا أن نحصل منه على شئ. ولا حتى الحصول على نعمة الصلاة نفسها التي تسمو بنا روحياً. ويركِّز يسوع هنا على تشويه الصلاة المتمثِّل في تكرار الطلب على اعتبار أن الصلاة هي كنزٌ ينفع الطالب وليس عطاءً للآخر.

الازدواجية

سبق وتكلمنا عن التناقض بين محتوى الصلاة والعمل. ويتكلم يسوع عن ذلك في الآية 15 بعد صلاة أبانا:

"وان لم تغفروا للناس زلاّتهم لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاّتكم".

هذا التناقض بين طلب الغفران من الله وعدم المغفرة للقريب، سيعود إليه المسيح بالتفصيل في مثلِ العبدَين: العبد الذي أعفاه سيده من دينه الكبير ولم يرد أن يسامح زميله بدَيْنٍ بسيط. (متى 18، 23 - 35) . هذا الأسلوب

في التصرف ينسف الصلاة من الداخل، ويجعل منها غطاءً للرياء ليس إلا. عندها يخدع الإنسان نفسه ويظنّ أنه يسير في طريق مشيئة الله بينما هو في الواقع بعيد عنها أشدَّ البُعد.

هنالك مثل آخر غير مثل العبدين يتكلم عن تشويهات الصلاة، وهو مثل الفريسي والعشار اللذين صعدا إلى الهيكل ليصليا. فصلاة الفريسي مليئة بالمشاعر المناقضة تماماً لروح الإنجيل، وهي صلاة مليئة كبرياءً وتعالياً على الآخرين.

يعرف يسوع أن ثَمّة تشويهات عديدة للصلاة. وهذا طبيعي إلى حدٍّ ما، لان الصلاة قيمة جميلة ومقدسة، فلا عجب إن كانت محفوفة دوماً بالمخاطر والتجارب.

التأمل: تشويهات ممكنة في الصلاة

ما هي تشويهات الصلاة التي ينبّهنا إليها المسيح اليوم؟ أريد أن أتكلم عن التشويهات الرئيسة، وهي ناتجة إما عن نقص أو عن مبالغة. وإن كنّا نعرف هذه التشويهات حق المعرفة فذلك لأننا اختبرناها في حياتنا العملية، ولأنها ليست غريبة عن حياة الكنيسة.

التشويهات الناتجة عن نقص

أريد أن ابدأ بالكلام عن تشويه للصلاة، ناتجٍ عن نقص، وهو تشويه انتهينا منه بنعمة الله وبمرور الوقت. فقبل عشرينٍ أو خمس وعشرين سنة كانت أول تجربة وأكبرها للتحول عن الصلاة متمثلة في الزّعم أن الأولوية في الحياة هي للأمور السياسية. فالخلاص في السياسة والفائدة فقط في السياسة (السياسة - بالطبع - كما كان يفهمها البعض)، وبالتالي يجب أن تكون الصلاة خاضعة للسياسة. فالصلاة في حالة كهذه إما أن تكون هروباً من السياسة (و بالتالي مرفوضة) وإما - إن أرادت أن تكون مقبولة - يجب أن تتحول إلى سياسة، وان يكون لها صبغة أو تأثير سياسي. ساد هذه التفكير عشرات السنوات، ومنع تطوير الصلاة الصادقة، وخدع الكثير من الأشخاص، وسبّب أزمة دعوة للآلاف من الكهنة والرهبان والراهبات في

الكثير من البلدان. وهكذا أصبحت الصلاة، بحجة أولوية السياسة، أمراً ثانوياً، وأصبح هدف أي اجتماع روحي هو تلقين المشتركين مبادئ سياسية معينة، وإلهاب مشاعرهم لصالح خط سياسي محدّد.

لا شك أن الصلاة يجب أن تصل إلى الحياة وإلى الواقع وإلى محبة الله ومحبة القريب. لكن هذا الأمر أُسيء فهمه بشكل خطير. ومن ترك الكهنوت والحياة الرهبانية بسبب هذا الخط السياسي، انتهى به الأمر بأن ترك السياسة أيضاً. وهنا أعود بالذاكرة إلى أواخر الستينات وأوائل السبعينات عندما كان يدور الكلام عن الوضع في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد اختلطت الأمور على الذين تبنّوا الدفاع عن أولوية، السياسة بحيث انهم فقدوا في النهاية معنى التزامهم نفسه.

أودُّ أن أُركِّز الآن على تشوهات ثلاثة مهمة:

* الأول هو الشعور بالفشل الذي يتضمَّنه تساؤلٌ مرير: "ما فائدة الصلاة الشخصية؟ " وهذه تجربة تأتي من اليأس ومن عدم الثقة: "ما الفائدة ما دمت لا أعرف كيف أُصلي وما دامت صلاتي دوما ناقصة، وما دمت اشعر أنه عليّ تكرار صلاتي إلى ما لا نهاية؟". عاشت القديسة تريزا الطفل يسوع هذه التجربة مده عشرين سنة. ولا شكّ أنها تجربة تقود الإنسان إلى ترك الصلاة.

* هنالك شكل آخر اقلّ جذرية من الخطر الأول. وهو لا يدعو إلى ترك الصلاة بل إلى التهرّب - عن خوف أو عن كسل أو عن شعور بعدم الأهلية- من أشكال الصلاة التي تتضمّن التزاماً صريحاً أمام الله. أستطيع - مثلا - أن أتقدم في صلاتي لكني أتوقف عن قصد لأني أشعر أنني عاجز عن ذلك، ولا أشعر أن الله يدعوني إلى أكثر مما أنا عليه. وهذا النمط من التفكير يعني أني لا أومن بأنني أستطيع، وأنه يجب علي أن اقطع شوطا ابعد في درب الصلاة، ناهيك انه يمنعني من الجواب على دعوة الله لي.

مثال ذلك الاستمرار في قراءة كتاب ما أثناء الصلاة الشخصية، عندما أشعر أني أستطيع الاستغناء عن القراءة. كان الكتاب ضرورياً في فترة ما من حياة القديسة تريزا، لكن عندما يصبح الكتاب عائقاً يحول دون تقدم مسيرتنا، فانه يقود إلى إهمال الصلاة الشخصية، ويستبدلها بقراءات روحية أو لاهوتية أو راعوية. هنالك فترات في مسيرة الصلاة يجب الابتعاد فيها

عن الكتاب، والتحلّي بالجرأة في الدخول في عالم الصلاة الشخصية وفي الصحراء وفي عالم الصمت التام.

لا شكّ أن هذه التجارب تختلف من شخص لآخر. من هنا لا بدَّ من وجود مرشد روحي متمرّس يعرف كيف يميز صوت المعلم الإلهي، ويختار الوقت الذي يطلب فيه الدخول في عالم الصمت أو في درجة أخرى من درجات الصلاة العقلية. وإلا فلن يخرج الإنسان أبدًا من عالم الصلاة البدائية.

* شكلٌ آخر من أشكال تشوّهات الصلاة هو التفكير أني لا أستطيع الصلاة إلاّ بشكل واحد، ورفض البحث أو قبول أشكال أخرى مغايرة للصلاة. وبتعبيرٍ آخر، عدم القدرة على التنويع في الصلاة، والتحجّر في شكل واحد للصلاة، لأننا قرأنا عنه أو مارسناه فترة ما. والاستمرار على نفس النمط حتى لو كان عديم الفائدة، لاعتقادنا أن تغييره غير ممكن. نصل هكذا إلى القول " ليست الصلاة لي، أنا لا أعرف كيف اصلّي" . الواقع أن الله يريد منك خطاً آخر في الصلاة، وعليك أن تبحث عن هذا الخط وتتبعه بشجاعة.

من جهة أخرى تختلف طرق صلاتنا باختلاف مراحل عمرنا أيضاً. لذا علينا أن ننتبه إلى إتباع نمط الصلاة الذي يناسبنا، النمط الذي يريده الله لنا في هذه المرحلة بالذات من عمرنا، متسلّحين بعواطف الثقة بالله القريب منّا والذي يرانا. ووضع الذات تحت نظر الله هو الأمر الذي يختصر جوهر صلاة القديسة تريزا.

التشوّهات الناجمة عن المبالغة

لا شك أنَّ هناك تشوّهات في الصلاة ناجمة عن المبالغة أو المغالاة. ونحن نعلم من تاريخ الكنيسة أن ثمّة أشكال صلاة في القرون الوسطى كانت تتسم بصفة المغالاة غير الحميدة. تضاءل عدد هذه الأشكال اليوم لكنها لم تختف عن الوجود وقد نقع في بعضها.

هنا أركِّز على شكل من هذه الأشكال وهو يختصر أشكالاً عديدة أخرى، وهو التهافت على أشكال معيّنة من الصلاة. وتهافتٌ من قِبَل أشخاص غير معروفين عادة بميلهم إلى الصلاة. وأعني بالذات بعض أشكال الصلوات إلى

الروح القدس المنتشرة اليوم في الكنيسة: ومنها صلوات إلى الروح القدس أو صلوات لطلب موهبة الشفاء، أو صلوات إلى قديس معيّن، أو صلوات أمام مزارات لظهورات غير معترف بها، أو صلوات جماعية لطرد الشياطين... وكلها تظاهرات تجمع عشرات الألوف من المصلّين. لا شك أن لهذه الأشكال من الصلاة طابعاً إيجابيّاً. فكم وكم من الأشخاص أعادوا اكتشاف معنى الصلاة بعد أن كانوا قد تركوها، أو بعد أن تعثّرت مسيرتهم الروحية لمدة طويلة، وكم من الأشخاص عادوا إلى الله بروح إيمان سليم وصادق، واكتشفوا أن الصلاة أمر ممكن، وأنها سبب فرح ولقاء مع الله، لا سيما إذا رافق ذلك عودة إلى الممارسات الروحية التقليدية من تلاوة السبحة الوردية وممارسة الأسرار. فقد رأينا أشخاصاً كانوا معروفين بمواقفهم المشكِّكة بكل شئ اسمه صلاة، يعودون إليها بحماس لا يصدَّق، ويعيشون على الخبز والماء، ويحيون حياة ارتداد صادق وعميق.

كل ذلك صحيح وجميل، لكن:

* لا يستطيع الراعي (الكاهن) أن يرتبط بشكل واحد من أشكال الصلاة الجماعية، ويهمل الأشكال الأخرى. فان كان خطأً أن نرفض إنساناً بمجرد أنه ينتمي إلى شكل صلاة لا نؤمن به، فانه لا يقل خطأً عنه التهافت على شكلٍ واحد من الصلاة، واعتباره الأداة الوحيدة الصالحة، والاعتماد الكلي عليه، وإبعاد كل من لا يشاركنا الرأي في ذلك. وكي يستطيع الكاهن/الراعي أن يتفادى الأمرين المذكورين، لا بد له من صلاة شخصية عميقة، وإلا حالما يلتقي بشكل من أشكال الصلاة الجديدة، فانه يقع تحت تأثيره الكامل ويفقد حريته تجاهه.

* أنَّ أفضل أشكال الصلاة لها جانبها الذي يجب الانتباه إليه: الشكلية الزائدة والتكرار والمراءاة. قد يظن المرء في بادئ الأمر أنه وجدَ افضل أشكال الصلاة، لكنه مع مرور الوقت يكتشف أنه يجب الانتباه إلى عدم الانزلاق في المراءاة والشكليات والتكرار. بمعنى آخر يجب أن يصاحب صلاتنا قدرٌ كبيرٌ من الحذر والسهر. لذا على الراعي أن يُبقي عينيه منفتحتين وأن يسهر وأن ينظر إلى كلِّ الأمور نظرة إيمان إنجيلي.

* هنالك خطر يواجهه من يتعلّق بشكل معين من أشكال الصلاة، ويقوم هذا

الخطر بانغلاق الإنسان في شكل الصلاة المذكور، لا سيما إذا وقع تحت تأثير جماعة من الناس. فمن ميزات الصلاة أنها حقيقة تتطور وتنمو. والانغلاق داخل مجموعة محددة من الأشخاص لا يسمح بهذا النمو لا على المستوى الفردي ولا على المستوى الجماعي.

وهذه الأخطار ليست بعيدة عن رعايانا ولا عن كنائسنا، لان شعبنا يتأثّر بسرعة بأشكال الصلاة الجديدة، ويسير فيها دون التمحيص اللازم. وهنا يجب ألاّ يقتصر دورنا على إطفاء حماس أبناء الرعية. فأبناء الرعية صادقون في اندفاعهم، ونادراً ما يفهمون تحفّظات راعيهم تجاه ما يقومون به أو يؤمنون به. لذا يجب على الكاهن أن يتحكّم بتظاهرات الصلاة الجديدة انطلاقاً من خبرته الشخصية المتينة في الصلاة. وخبرته هذه هي التي تؤهله لأن يميّز بين الإيجابي والسلبي في أشكال الصلاة المذكورة.

خاتمة

نستطيع أن نطبّق بكلّ سهولة على موضوع الصلاة ما قاله يسوع في إنجيل لوقا:

"وإني أقول لكم: اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم. لأن من يسأل ينل، ومن يطلب يجد ومن يقرع يُفتح له" (لوقا 11،9)

هبة الصلاة أمرٌ يُطلب. يجب أن نقرع الباب أكثر من مرة، تماما كما يقول المسيح عن صديق نصف الليل (آية 5 - 8)، ثم يتابع:

" أيُّ أب منكم إذا سأله ابنه سمكة أعطاه بدل السمكة حية؟ أو سأله بيضة أعطاه عقربا؟"

الصلاة خبز وسمك وبيضة تُغذّي، ويمكن أن تتحوّل إلى حجر أو إلى حية أو إلى عقرب. هذه هي تشوّهات الصلاة التي نقع فيها بسهولة لكن الله يعطي الغذاء السليم لمن يطلبه.

"فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تعطوا العطايا الصالحة لأبنائكم، فما أولى أباكم السماوي بأن يهب الروح القدس للذين يسألونه" (13).

لنطلب - بعضنا من أجل بعض - روح الصلاة.

الصلاة من اجل الآخرين
التأمل الرابع

بعد أن تأملنا في الصلاة الشخصية، نريد الآن أن نتعمّق في مفهوم الصلاة من أجل الغير. ما هي الصلاة من أجل الغير، وكيف يتكلّم عنها الكتاب المقدس؟

سنقرأ أولاً بعض النصوص الكتابية حول هذا الموضوع (المسمّى أيضاً صلاة الشفاعة)، ثم سنتأمّل فيها. سنتساءل ماذا تعني صلاة الشفاعة بالنسبة لنا، وكيف نحن مدعوون لأن نكون شفعاء لشعبنا.

القراءة

1. خروج 32، 11 - 14. هو المرجع الذي يتضمن شفاعة موسى النبي من أجل شعبه: "فتضرع موسى إلى الرب". آيات متتابعة من الشفاعة تشكّل في مجملها صلاة غاية في الجمال. دفاع مستميت عن الشعب من خلال أسئلة متتابعة تهدف في النهاية إلى إقناع الله.

"فتضرّع موسى إلى الرب إلهه وقال: "يا رب لماذا يشتد غضبك على شعبك الذين أخرجتهم من أرض مصر بقوة عظيمة ويدٍ قديرة؟ أفلا يقول المصريون أنَّ إلههم أخرجهم من هنا بسوء نية، ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟" (12،11).

وبعد تساؤلين متشابهين، تبدأ صلاة الشفاعة الحقيقية:

"ارجع عن شدَّة غضبك وعُد عَن الإساءة إلى شعبك. واذكر إبراهيم واسحق ويعقوب عبيدك الذين أقسمت لهم بذاتك وقلت لهم إني اكثّر نسلكم كنجوم السماء، أعطيكم جميع هذه الأرض التي وعدتكم بها، فترثونها إلى الأبد" (12 - 13) .

ما هو جواب الله على تضرُّع موسى؟

"فعاد الرب عن السوء الذي قال أنه سينزله بشعبه" (14).

تشكّل هذه الصفحة إحدى قمم صلوات الشفاعة في الكتاب المقدس. يقول فيها شارحو الكتاب المقدس:

" يلبس موسى النبي ثوب الشفيع الكبير. وقد سبق له ومارس هذا الدور أثناء ضربات مصر (خروج 5، 22 - 23 و 4،8 و 9،28 و 10، 17). وتشفّع لأخته مريم (عدد 12،13). لكنّ شفاعته ظهرت دفاعاً عن شعبه التائه في الصحراء (خروج 5، 22 - 23 و 32 و11 - 14 و 30 -32 . عدد 11،2 و 14، 13 - 19 و 16، 22 و 21،7. تثنية 9، 25 - 29). وتكلّم عن دور الشفاعة كلٌّ من إرميا 15،1 والمزامير 99،6 و106،23 ويشوع بن سيراخ 45،3 . انظر أيضاً المكابيين 15،14. ولا شك أنَّ موسى الشفيع صورة مسبقة عن المسيح الشفيع المتميّز.

يشكّل موسى إذاً صورة فريدة للشفاعة التي هي من المواضيع البارزة في الكتاب المقدس. يقول شارحو الكتاب المقدس أن موضوع الشفاعة لم يسقط، بدليل أن المسيح نفسه عاد إليه. فما حياة المسيح وعمله وفداؤه إلا شفاعة مستمرة في حضرة الله.

2. نريد أن نختار من النصوص المتعدّدة المذكورة أعلاه نصّاً رائعاً - وذلك بسبب فعاليته السريعة - من نبوءة إرميا (15،1) .

"وقال لي الرب: "لو أن موسى وصموئيل تشفعا أمامي لما التفت قلبي إلى هذا الشعب. فاطرحهم عن وجهي خارجا".

لاحظ أن شفاعة الأنبياء من القوة بحيث أن الله يرفض سماعها كي لا يقع تحت تأثيرها. فصموئيل - كما نعلم - شفيع متميّز. وكنتُ قد تكلّمت بإسهاب عن شخصية صموئيل في رياضة روحية لأساقفة البيرو، وأَذكر أني حاولت تقديم صموئيل في صورة الأسقف الذي يتشفّع من أجل شعبه، لا سيما أنَّ البيرو كان وما زال يواجه الكثير من الصعوبات التي تشكل آلاماً للأساقفة ودعوة إلى الصلاة. من هنا ارتأيت أن انظر إلى وجه صموئيل نظرتي إلى وجه الراعي الشفيع.

3. نجد تتويج شفاعة كبار الأنبياء في العهد القديم في شفاعة المسيح:

"من يحكُم عليهم؟ مات يسوع المسيح، بل قام، وهو عن يمين الله يشفع لنا". (روما 8، 34).

تجد شفاعة يسوع قمّتها على الأرض في سرِّ الافخارستيا، لكنها أمام الله شفاعة مستمرة. وهي، على ما يقوله بولس، الشفاعة التي يثيرها الروح فينا عندما نصلّي:

"الروح يشفع لنا بأنّات لا توصف. والذي يفحص عن القلوب يعلم ما هي رغبة الروح، وكيف أنه يشفع للقديسين بما يوافق مشيئة الله" (روما 8، 26 /ب -27).

يدخل تضرِّعنا إذاً في حركة شفاعة سامية، هي شفاعة المسيح لدى الاب، وشفاعة الروح القدس في صلاتنا. لذا نحن جزء من دينامية شفاعة أقوى منا بكثير، وعلينا أن نعي ذلك كي نشارك فيها مشاركة كاملة.

4. نجد في العهد الجديد أمثالاً جميلة لأشخاص صلّوا بعمق وبصدق من أجل الآخرين، مدفوعين في ذلك بقوة الروح القدس. نذكر على سبيل المثال الرسل الذين عاشوا خبرة صلاة الشكر التي هي أقوى من صلاة الطلب أو الغفران. هل هنالك أجمل من صلوات الشكر التي يذكرها بولس في بدء رسائله؟

" إني احمد الله إليكم أبداً على ما أُوتيتم من نعمة الله في المسيح يسوع. فقد أُغنيتم كل الغنى في فنون الكلام وأنواع المعرفة" (ا كو 1، 4-5).

كانت أول صلاة للرسول من أجل الآخرين ومن أجل الجماعة المؤمنة صلاة شكر. وعلينا أن نعتبر مَثَل بولس في شكر الله من أجل الجماعة. ومع أنَّ هذا هو أول واجب للراعي، إلا أننا كثيراً ما ننساه. ومع أن بولس يواجه في الكثير من الأحيان جماعات مسيحية غير مثالية، ونراه يؤنِّبها بشدّة، بَيْدَ أنه يبدأ دوما بحمد الله على كل حال. ونرى أيضاً في كتابات بولس نصوص شفاعة جميلة من اجل جماعة المؤمنين. ففي رسالته إلى أهل فيلبي، يبدأ بشكر الله ثم ينتقل إلى التشفع:

"وما دعائي الا أن تُزاد محبّتكم معرفة وبصيرة زيادة مضاعفة فلا يخفى عليها شئ وتمّيزوا الأفضل لتصبحوا أطهاراً لا لوم عليكم في يوم المسيح، حاملين أحمالاً من ثمر البر الذي هو من فضل يسوع المسيح تمجيداً وتسبيحاً لله" (1، 9-11).

كان بولس إذاً ينظر إلى كلّ جماعة مؤمنه نظرة الخلاص، ويتشفّع لها لنيل الخلاص. ونجد صلاة شفاعة أخرى جميلة لبولس في منتصف رسالته إلى أهل أفسس:

"لهذا أجثو على ركبتي للآب، فمنه كلّ أبوة في السماء والأرض، وأسأله أن يؤيّدكم بروحه على مقدار سعة مجده ليقوى فيكم الإنسان الباطن، وأن يقيم المسيح في قلوبكم بالإيمان، حتى إذا ما تأصَّلتم في المحبة وأُسَّستم عليها أمكنكم أن تدركوا وجميع القديسين ما هو العرض والطول والعلو والعمق، وتعرفوا محبة المسيح التي تفوق كل معرفة، وتتمتَّعوا لكل ما عند الله من سعة"

ويختم بولس بتسبيح فريد:

"ذاك الذي يستطيع أن يبلغ بنا، بقوته العاملة فينا، مبلغاً أَبعد ممّا نسأله أو نتصوَّره، له المجد في الكنيسة وفي المسيح يسوع على مدى جميع الأجيال والدهور. آمين". (3، 14 - 21).

نرى هنا أن صلاة الشفاعة أصبحت طقسية (ليتورجية) ودخلت في الصلاة الرسمية.

وصلاة الرسل من أجل غيرهم تطرح علينا سؤالاً. هل صلاة الشفاعة عندي أمرٌ جدّي وعميق وكثيف أم أمرٌ سطحي وسريع وعابر طريق؟ هل تحوي صلاتي بُعد الشكر باسم الآخرين، الشكر الذي يرى أعمال الله العجيبة في الغير؟ وهذا السؤال يُدخلنا في القسم الثاني من حديثنا:

التأمل

سنتأمّل في ثلاث نقاط: ما هي صلاة الشفاعة؟ ماذا تعني عبارة "اقدّس نفسي من أجلهم"؟ (يوحنا 17،19) ثم ماذا تعني بالنسبة لنا الصلاة من أجل الغير؟

- ما هي صلاة الشفاعة؟

طرقتُ هذا الموضوع بإسهاب في كانون الثاني عام 1991، وكنّا وقتئذٍ في صدد محاولة وقف حرب الخليج، وكان قداسة البابا قد طلب من الكنيسة جمعاء أن تصلّي بلا انقطاع من أجل السلام. خطّط شباب الأبرشية لساعة سجودٍ في الكاتدرائية، وخاطبتهُم مفسِّرا أصل الكلمة اللاتينية (تشفع inter-cedere) أي القيام بخطوة بحيث يقف "الوسيط" في وسط حالة معينة. الشفيع هو الذي يمدّ يده بمحبة ودون أي حكمٍ مُسبق لِطرفي الصراع. ويسوع وضع نفسه في الوسط لأنه شعر بتضامنٍ مع طرفي الصراع، الله والإنسان. لا بل التقى طرفا الصراع في شخص المسيح، الإله الإنسان. فهو مع الإنسان الخاطئ، ويعيش كلَّ متطلبات الله تعالى. هو شفيع كامل لأنه يستطيع أن يقدِّم لله الطبيعة البشرية الضعيفة وكأنها طبيعته، ويدافع بسلطان عن حقوق الله أمام البشر. هنا لا بد من هذا الحب الثنائي: حب الله وحب الإنسان. لذا لا يمكن أن تكون صلاة الشفاعة قوية أن كان أحدُ الحُبّين المذكورين ضعيفاً.

لنعد إلى كلمات موسى المشتعلة ناراً في سبيل خلاص شعبه، لأنه استطاع أن يعتبر نفسه أحد أفراد الشعب وفي نفس الوقت مدافعاً مستميتاً عن الله:

قال موسى للشعب: "خطئتم خطيئة عظيمة، والآن أصعد إلى الرب العلي اكفّر خطيئتكم. ورجع موسى إلى الرب وقال: "يا ربّ خطئ هؤلاء الشعب خطيئة عظيمة وصنعوا لهم آلهةٌ من ذهب. فإمّا تغفر خطيئتهم أو تمحوني من كتابك الذي كتبتَه" (خروج 32، 30 - 32).

تظهر جملة موسى الأخيرة وكأنها تجديف على الله، إذ أنه يطلب أن يُمحى اسمه من سفر الحياة. لكنها تعبّر عن قمة حب موسى لشعبه، مع عزمه الصادق على عدم ترك محبة الله. سيقول بولس في نفس المعنى:

"لقد وددتُ لو كنت أنا نفسي ملعوناً ومنفصلاً عن المسيح في سبيل إخوتي بني قومي من النّسب" (روما 9،3).

الشفاعة إذاً ثمرة المحبة. فإن أخذ الكاهن علاقته بربِّه محمل الجد، اخذ أيضاً محبة الشعب محمل الجد، واستطاع أن يدعوه "شعبي".

"اقدِّس نفسي من أجلهم"

نقرأ خطّاً آخر في الشفاعة في إنجيل يوحنا (17،19) حيث يصلّي يسوع إلى أبيه ويقول " اقدِّس نفسي من أجلهم. أكرّس نفسي من أجلهم ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق". كلمات غريبة توحي لنا بضرورة تعميق الفكرة التالية: اقدّم حياة صلاتي، بصعوباتها وديناميتها وأتعابها، شفاعة وتعويضاً عن الآخرين، عن الذين أحبهم، عن الذين لا يعرفون كيف يصلّون أو يجدون صعوبة بالغة في صلاتهم. آخذ تعبهم على نفسي وأضمّه إلى تعبي. أحمل في داخلي ومعي كل الذين أحبُّهم في طريق صلاتي المتعب. " اقدِّس نفسي من أجلهم". وحتى لو لم أذكر أسماءهم مباشرة أو فرداً فرداً، فأنا أقبلهم بشكل كامل في صلاتي وفي حياتي كما يحمل يسوع قطيعه وهو في طريقه نحو الصليب ونحو الآب.

التطبيق: ماذا يعني بالنسبة لنا أن نصلّي من اجل الآخرين؟

عندما يطلب بعض الناس منّا أن نصلّي من أجلهم، يتبادر مباشرة إلى ذهننا أن نأخذ دفتر المواعيد ونكتب جميع الأسماء المطلوبة. لا أقول أن هذا الأمر خاطئ لكنه يصبح مشكلة. ما العمل أمام لوائح أسماء لا تنتهي؟ كيف نذكر بالاسم وكيف نحمل في صلاتنا أسماءً بعدد رمل البحر ونجوم السماء؟ أريد أن اذكر لكم بعض الأشكال التي من خلالها تدخل الشفاعة في صلاتنا:

* أولا الإفخارستيا. القداس هو اكبر صلاة شفاعة من أجل الشعب ومن أجل شعب الله في كافة أنحاء المعمورة، وبالخصوص من أجل شعب الله الموكول إلى رعايتنا. لا شك أنه ثمة أوقات خاصة في القداس للصلاة من أجل الشعب (بعد الإنجيل، في قانون القداس، في ذكر الأحياء والأموات)، لكنَّ القداس بأكمله صلاة شفاعة. هو كذلك وهكذا يجب أن يكون وأن يُعاش.

أفضل جواب نعطيه إذاً لمن يطلب صلاتنا هو الاحتفال بذبيحة القداس، وهو أكبر قدر ممكن من الاتحاد العميق بيسوع المسيح، الشفيع الأكبر في حضرة الله، وهو أسمى عمل شفاعة "بالمسيح ومع المسيح وفي المسيح". يتيح لنا القداس أن نقوم بدورنا كشفعاء بشكل كبير وإن لم يكن كاملاً.

* شكلٌ آخر من أشكال صلاة الشفاعة هو ليتورجية الساعات التي نتلوها باسم الكنيسة ومع الكنيسة وبشفاعة للكنيسة. فالمزامير والطلبات والتسبيح والصلوات... كلّ ذلك هو في نفس الوقت واجبّ علينا، وممارسة عملية للشفاعة وللتسبيح، وشكرُ الله من أجل الجماعة.

* ثم تأتي الصلوات الخاصة التي نتلوها في مناسبات الألم أو الحزن أو الأزمات. وهي صلوات تشترك في عملية الشفاعة الكبيرة.

* وكما قلت في تفسيري للآية 19 من يوحنا 17، أكرِّر الآن: "أنا أتشفّع من أجلكم (كلّ واحد يتشفع من أجل الآخرين) في جهد صلاتي ومعاناتها، حاملاً على كتفي أثقال من لا يؤمنون ولا يصلّون. وقد عاشت القديسة تريزا الطفل يسوع صعوبات الإيمان وظلمة ليل الإيمان الطويل كمشاركة على مائدة الخاطئين وقليلي الإيمان. هكذا نحن، تقوم دعوتنا على تحمل الآلام وتقديمها من أجل من لا يؤمنون.

* أخيراً، تقوم شفاعتنا في الجهد الذي نبذله كي نطابق إرادتنا مع إرادة المسيح في الله. فعندما نحاول الوصول إلى هذه الوحدة في صلاتنا وفي حياتنا، نحن نتشفّع، أي نحمل على كاهلنا الواقع المحيط بنا على أمل أن يتطابق هو أيضاً مع مشيئة الله: " لتكن مشيئتك". فعندما أطلب أن تتحقق مشيئة الله فيّ ومن اجلي، وفي الآخرين ومن أجلهم، أنا أتشفّع من أجل الجميع. يجب ألاّ ينتابَنا الخوف أمام طريق الشفاعة الضخم هذا، ذلك أننا لسنا وحدنا في الساحة. فنحن جيش عرمرم من الشفعاء. وبينما نتشفّع نحن من أجل غيرنا، هناك كثيرون مجهولون، في السماء وعلى الأرض، أناس عرفناهم وأحببناهم وفارقونا إلى الديار الأبدية... ويشفعون لنا بدورهم. فنحن تظلّلنا غمامة عظيمة من الشفعاء. وهم تشجيع لنا في هذا الطريق التي نريد أن نسلكه، مبتدئين من هذا المكان المقدس ("أفيلا") .

تأمل حول الصلاة

بقلم توماس الفارس فرناندس الكرملي

القديسة تريزا، معلمة الصلاة للشعب.

إخوتي الكهنة، طلبتم منّي أن أُكلِّمكم عن الصلاة على خطى القديسة تريزا. لذا اجتمعنا الآن في هذا المكان الذي نشعر فيه بقربها، بجانب أول دير أسَّستْهُ القديسة للراهبات التأمليّات.

نستطيع أن نتوجه إلى تريزا ونطلب منها بتواضع ما طلبه الرسل من المسيح: "يا تريزا علمينا أن نصلي". ونطلب منها ذلك بروح الكنيسة التي أعلنتها رسميا "معلمة للكنيسة".

عندما تكلّم البابا بولس السادس - بعد المجمع المسكوني - في إحدى عظاته يوم الأحد عن إعطاء هذا اللقب لامرأة لأول مرة في تاريخ الكنيسة، ركّز على ميزة خاصة بها، معلناً إياها "معلمة صلاة لإنسان اليوم". وأراد البابا بذلك أن يحرّر تعليم تريزا الروحي من صبغة الصوفية التي لازمتها طويلاً، صبغة تكاد تحصر تأثيرها في نخبة مختارة من الروحانيين أو المتصوفين. ونحن نريد اليوم - من هذه الكنيسة - أن نتكلّم عن القديسة كما تكلّم عنها البابا، كمعلمة صلاة للشعب العادي الفقير. وفي هذا المكان بالذات، بدأت تريزا تعليمها الروحي لحفنةٍ من الفتيات الفقيرات والأُميّات، اللواتي كنَّ يشعرن بعطشٍ كبيرٍ إلى ماء الحياة وإلى ماء الصلاة الحي. لذا أريد في كلامي إليكم أن أعيد لكم تعليماً بسيطاً أعطته تريزا عن موضوع الصلاة، وهو نفس التعليم الذي نعطيه للمبتدئ أو المبتدئة التي تريد اعتناق حياة الكرمل. أريد أن أعطيكم إذاً - إن صحَّ التعبير - أوَّلَ درس للقديسة تريزا عن الصلاة.

حياتها

أَبدأ بمقدّمتين. أوّلهما أن تريزا تُعلِّم الصلاة وهي تصلّي أمام تلميذها. هذه هي سُنّة الصلاة الأولى: ألا تتكلّم أبداً عن الصلاة دون أن تصلّي. فعلى القارئ أو التلميذ أن يشعر بصلاتها ليفهم ما تقوله عن الصلاة. والمقدمة الثانية هي أن تريزا - قبل أن تعطي نظريات حول الصلاة - تسرد مسيرة صلاتها هي. أي أنها تلتجئ إلى خبرتها الشخصية لتشجّع خبرة المبتدئ. تعليمها إذاً هو أولاً تعليم قصصي وحميم. وهذه ما سنعمله نحن أيضاً. سنأخذ كتابَيْ القديسة تريزا الرئيسين - كتاب حياتها وكتاب طريق الكمال - وهما كتابان وُضِعا في هذا الدير بالذات. تسرد تريزا في الكتاب الأول قصة الصلاة، وفي الكتاب الثاني تعرض تعليمها حول موضوع الصلاة.

الصعوبات

عندما تسرد ترزيا حياتها، تبدأ بالصعوبات. فقد عاشت سنوات وسنوات من الصلاة الصعبة. ليس أقل من عشرين سنة من الجهد المضني. كانت تشعر نفسها عاجزة عن التركيز في الصلاة دون الاستعانة بكتاب. وكان كتابها المفضّل الإنجيل المقدس. ومع ذلك، حتى مع الإنجيل المقدس، كانت عرضةً للفراغ الداخلي والتشتّت الخارجي.

تمارس ترزيا الراهبة الكرملية الشابة - كان عمرها آنذاك بين 22 - 30 سنة - الصلاة التأملية في "دير التجسد". ومع أن حركة الإصلاح في الصلاة لم تكن قد دخلت ديرها بعد، إلا أنها حصلت على كتب تتكلّم عن الصلاة المنهجية، وفرضت على ذاتها ساعة صلاة صامتة يومياً. ومع ذلك فهي تقول:

"كنتُ اهتمّ لسنوات عديدة بأن تنتهي الساعة المخصَصة للصلاة وأهتمّ بسماع دقات الساعة أكثر من اهتمامي بالتركيز في الصلاة. وكثيراً ما كُنت أتمنَّى القيام بأي عمل تكفيري مهما كان ثقيلاً على أن أبقى ساجدة أمام الله في الصلاة. وبالفعل، فقد كانت تجارب الشيطان وتجارب عاداتي الرديئة قوية، وكان حزني لدى اقتراب ساعة الصلاة كبيراً، إلى حدّ أني كنت أشعر بضرورة تجميع كلّ قواي، وفي النهاية كان الله يأتي إلى مساعدتي".

ومع ذلك أتى وقت يئست فيه تريزا وتركت الصلاة الشخصية جانباً. عاشت سنة كاملة دون صلاة. كان عمرها آنذاك 29 سنة، وكانت في السنة العاشرة من تكريسها الرهباني. وتتكلم هي بنفسها عن صعوباتها آنذاك، وتحصرها في ثلاثة:

* أولاً، النقص في تربيتها على الصلاة:"لم يكن عندي معلِّم صلاة أو معرّف يفهمني ويساعدني أثناء هذه السنوات الثماني عشرة الصعبة". "ما أصعب أن يجد المرء نفسه وحيدا أمام هذا العدد الكبير من المخاطر". "لم أجد معلِّما يفهمني مع أني بحثت طويلاً وحتى في السنوات اللاحقة لم أجد".

* النوع الثاني من الصعوبات كان على المستوى النفسي: التشتيت والعجز في التركيز والتفكير. كانت تريزا تدعو تفكيرها المشتَّت "مجنون البيت" . كانت تشبِّهه بحجر الرّحى، الذي لا يكفّ عن الدوران، أو بالفراشات الليلية التي تحوم حول النور وتطفئه. كانت تريزا على قناعة أنه إذاً لم يتدخل الرب فان الفوضى التي تشعر بها في داخلها لا علاج لها. لذا كانت تريزا عاجزة عن التأمل بسبب وجود "مجنون في البيت" ... من هنا جاء شعورها بالفراغ وبضياع الوقت في اللحظات المخصّصة للصلاة.

* أخيراً تكتشف تريزا أن أساس صعوباتها ليس في مخيّلتها بل في حياتها نفسها، في الازدواجية بين ما تعيشه في حياتها اليومية الفاترة، ولحظات الغنى الروحي التي كانت تجتنيها من صلاتها الشخصية. فهمت أن سبب شعورها بالفراغ في لحظات الصلاة ليس التشتّتات الفكرية أثناء الصلاة، بقدر ما هو خروج حياتها نفسها عن خط الصلاة الذي أصبح هامشياً في حياتها اليومية. من هنا شعرت تريزا في نفسها بضرورة الارتداد. وزاد ذلك الشعور إلحاحاً في كل مرة حاولت أن تختلي في الصلاة. "كنت أتضرع إلى الرب كي يأتي لنجدتي... كنت أبحث عن العلاج بكل الطرق لكنّي لم أكن قد اقتنعتُ بأنَّ كلَّ جهودي تذهب سُدى إن لم أعتمد كليّاً على الله لا على ذاتي. كنت أرغب في الحياة لأنه كان لدي شعور بعدم الحياة. كنت أشعر أني أصارع قوى الموت، ولم يكن بقربي أحد يعطيني الأمل في الحياة. وأنا لا ألوم من كان يجب أن يساعدني ولم يفعل، لأنه سبق له وساعدني أكثر من مرة، وكنت أنا دوما أتخلّى عنه".

الاستسلام

تستلم تريزا في النهاية. ويحصل هذا الاستسلام أمام صورة للمسيح وَجَدَتْها صدفة في مُصلّى الدير. وعندما تسرد ترزيا قصة ارتدادها تشبّه نفسها بشخصين ارتدّا مثلها: مريم المجدلية أولاً التي ارتدّت في الإنجيل عند لقائها بالمسيح، وأصبحتْ "تحبّ كثيرا". هكذا حدث مع تريزا، فقد ارتدَّت إلى "شخص يسوع المسيح"، ووضعت فيه كلَّ ثقتها. ثم وقع بين يديّ تريزا كتاب اعترافات القديس اغسطينوس الذي طبع في الاسبانية للمرة الأولى عام 1554. ولدى قراءتها الكتاب، شعرت أنها تسمع نفس الصوت في الحديقة، وتقرأ نفس النصّ من القديس بولس. وكما كان الأمر بالنسبة لأغسطينوس، هكذا حصل مع تريزا، شعرَت أن الارتداد يعني تغيير الحياة والمسلك تغييراً جذرياً، كما يعني الخروج من حالة الفتور التي كانت تعيشها في تكريسها الرهباني.

هذا التغيير المزدوج - أي التوجه نحو شخص المسيح وتغيير نمط الحياة الرهبانية - يؤثّر تأثيراً مباشراً على حياة الصلاة التي تتبدّل أيضاً تبديلاً جذرياً. فطرق الصلاة التأمّلية التقليدية تسقط، وتختبر القديسة خبرة علاقة شخصية مع المسيح، ودخولاً في حضرة الله. وفيما يلي ما بدأت به القديسة تريزا الفصل (من كتابها) الذي يلي ارتدادها:

" عندما كنت على وشك الدخول في الصلاة، أو عند ارتمائي عند قدمي يسوع، وحتى أثناء القراءة، كنت أشعر فجأة بان جوَّاً عميقاً من الصلاة يتملّكني ويجعلني أشعر بوجودٍ ملموسٍ لله في داخلي، بحيث لم يساورني شك آنذاك أني في الله وأنّ الله فيّ".

كان هذا بدء الصلاة التصوفية. لكنه كان أيضاً عودة إلى شكل من أشكال الصلاة العفوية والتأملية التي عاشتها تريزا منذ نعومة أظفارها، دون الاستعانة بكتاب أو بمنهجية معيّنة.

الصلاة كعلاقة صداقة

لن نتعمَّق في تطوّر صلاة تريزا الصوفية. نريد أن نتوقّف عند نقطة عقائدية مهمة. أصبحت لدى تريزا أفكارٌ واضحة عن الصلاة فقط عندما وصلت إلى ممارسة الصلاة التأملية. أصبحت رُؤيتها للصلاة تختلف عمّا تعلمَته سابقاً في الكتب. تقول هي نفسها في ذلك:

"ليست الصلاة الذهنية بالنسبة لي سوى علاقة صداقة حميمة: أن ألتقي باستمرار، وجهاً لوجه، بالشخص الذي أعرف يقيناً أنه يحبّني".

لسنا هنا أمام تعريف عقائدي للصلاة بقدر ما نحن أمام توجّه جديد في الصلاة عاشته القديسة تريزا، وعبرّت عنه بكلماتها الخاصة، وأصبح فيما بعد أساساً للتربية على الصلاة حسب منهج القديسة تريزا. فيما يلي النقاط البارزة في هذا التعليم:

* أولاً: مرّت تريزا من ممارسة التأمل الشخصي إلى نوعٍ من العلاقة الشخصية، بحيث أن صلاتها لم تعد تركيزاً على ذاتها بل علاقةً مع شخصٍ آخر. وهذا المرور من علاقة أُحادية الشخصية إلى علاقة ثنائية الشخصية أمرٌ أساسي في خبرة تريزا.

* ثانياً: إن كانت الصلاة علاقة صداقة، فالعنصر الأهم فيها - كما في أيَّة صداقة - هو الأشخاص، إي الصديقان. بيد أنه في هذا النوع من الصداقة - بيننا وبين المسيح، أو بيننا وبين الله - هنالك سلّم أولويات بين الشخصين. فالله هو الصديق الأول والرئيس. وهو المصلّي الأول. صحيح أنَّ الصلاة عمل يقوم به الصديقان. لكنّ تريزا فهمت في النهاية أنَّه لا يمكن مقارنة جهد الإنسان المصلّي بقوة النعمة التي يفيضها الله. من هنا الأهمية المطلقة لكلمة الله: سماع كلمة الله المدوّنة، أو كلمة الله التي تأتينا عن طريق الآخرين أو عن طريق الأحداث اليومية.

* ثالثا: أصبحت العلاقة واضحة عند تريزا بين الصلاة والحياة المعاشة. فالصداقة ليست عملاً مزاجياً أو متقطعاً. فأمّا أن تدوم الصداقة مدى الحياة وإمّا لا صداقة. وهكذا الصلاة. هي أيضاً أمر حياتيّ، بمعنى أنه يجب أن تتغلغل في كلِّ أبعاد الحياة. يجب أن تسمو بالحياة وتعطيها شكلاً جديداً.

* أخيراً: هذا الشكل " الشخصاني" للصلاة يؤثِّر في جميع تعابير الصلاة وأشكالها، من تأمل وسجود وتضرع وشكر وتقديم الذات لله. وهكذا يصبح التأمل في مَثَلٍ من أمثال الإنجيل مرادفاً لسماع كلمة شخص آخر. كما يصبح السجود والحمد والشكر أشكالاً مختلفةً من الصلاة تربطنا بنفس الشخص. وأما الشفاعة والتضرِّع فتصبح الامتداد الطبيعي للعلاقة بين الشخصين - المسيح والمصلّي - بحيث تشمل هذه العلاقة أشخاصاً آخرين بصفتهم " أبناء" الله أو بصفتهم "اخوة" المصلّي.

من هنا نرى ضرورة وجود الشخص الآخر في عملية الصلاة. وبدون هذا الآخر تصبح الصلاة عملا "فارغا". يتبع ذلك بالضرورة الحاجة المتزايدة إلى معرفة المسيح والسماع إليه وإتباعه والعيش معه وعلى مثاله، إلى حدّ العيش فيه. وهكذا تتكوّن معالمٌ واضحة لشخص المسيح ولوجهه. هو الرب وهو إنسان مثلنا وهو الصديق والأخ والعريس والمعلّم والكلمة الداخلية ومثال الحياة. تدعوه تريزا "الكتاب الحي" . وهكذا تصبح الصلاة تاريخَ خلاصٍ وتاريخَ علاقة بين الإنسان والمسيح، علاقة تتضمّن ضرورة التأمّل والتمثُّل والوحدة والخدمة.

نستطيع الآن أن نقارن - بشكلٍ سريع - بين أفكار تريزا وبين لاهوتنا نحن عن الصلاة. فنحن نعلم يقيناً أن الصلاة المسيحية هي في الأساس حوار. هي أن يستطيع أبناء الله أن يقولوا " أبّا، أيها الآب" مع المسيح، مدفوعين بقوة روح المحبة. كما أنه من الواضح أن الحياة المسيحية تتضمّن علاقة خاصة تجمع بين المعمَّد والمسيح. فكيف يكون الإنسان مسيحيا إن لم يحي مع المسيح ولم يتشبّه به في عمله وخدمته.

من هنا، كونُ الصلاة تأويناً للعلاقة الشخصية مع المسيح يصيب عصب الحياة المسيحية. فلا عجب أن تصبح الصلاة عند تريزا ميزاناً لنموّ الإنسان في المسيح. لا شكّ أن خبرات روحية كثيرة تؤثّر في الحياة المسيحية وتُغنيها، لكن الصلاة هي الخبرة المركزية التي لا غنى عنها. فهي التي تُنَمّي علاقتنا بالمسيح، العلاقة المبنية على المعمودية وعلى الكهنوت الملوكي.

طريق الكمال

ما أن انتهت تريزا من كتابة سيرتها الذاتية حتى باشرت بكتابة مؤلفها الثاني - طريق الكمال - بهدف تعليم الصلاة لاثني عشر شابا اجتمعوا في كرمل مار يوسف هذا. وهذا الكتاب يدفعنا إلى أن نقول مجدّداً "يا تريزا علمينا أن نصلي". كُتِب المؤلَّف الأول لخمسة أصدقاء لتريزا: تقول عنهم " نحن الخمسة الذين نحبّ بعضنا بعضا في المسيح". كانت هذه المجموعة غير المتجانسة تشبه إلى حد كبير ما ندعوه اليوم " مجموعة صلاة" . كانت هذه المجموعة تضمُّ كاهنا (الاب دازا) ورجلاً متزوجاً (الفارس القديس) وأرملة (السيدة جويمار) ومعلِّمَين من جمعية الدومنيكان. أحرز هؤلاء الأشخاص تقدماً ملحوظاً في الصلاة بإرشادات القديسة ترزيا، لا سيما الرّاهبان اللذان دخلا سريعاً في عالم الصلاة الصوفية " في طريقة الريّ الثالثة والرابعة" التي تتكلم عنها تريزا في حياتها...

بيد أن المجموعة المذكورة كانت غير ثابتة وغير متجانسة. أما الكتاب الثاني فكتبتْه تريزا "لمجموعة حياة" مؤلّفة من أشخاص مبتدئين، يريدون تعلّم الصلاة التأمليّة. لذا كانوا بحاجة إلى برنامجٍ متكاملٍ يضعهم على طريق الصلاة الشخصية والجماعية.

ويشكّل الكتابان المذكوران مثلاً حياً في رسالة الصلاة. ويُظهِران أن الصلاة تصبح شبه عدوى تمرُّ من شخص إلى شخص، وتجذب أشخاصا آخرين. فبالنسبة لتريزا لا يمكن أن تكون هناك حياة صلاة صادقة إن لم تكن في نفس الوقت رسالةً حول موضوع الصلاة. وما كتاب " طريق الكمال" إلا تعبيرٌ عن قناعة المؤلف بذلك.

سأكتفي بسرد مخطط الكتاب العام الذي هو مختصر لتعليم راعوي حول مبادئ تعليم الصلاة.

= تقول تريزا في مقدمة الكتاب أمراً غير منتظر: الصلاة وحياة الجماعة التأملية هي أولاً عمل خدمة في سبيل الكنيسة. هذه هو موضوع الفصول الثلاثة الأولى.

"نحن هنا من أجل الكنيسة". "كل حياتنا التأمّلية هي من أجل الكنيسة". " وفي اللحظة التي لا تفكّرون فيها كذلك، فأنتم لا تقومون بالعمل الذي اجتمعتم هنا من أجله".

هذه المقدمة أساسيّة. فليست الصلاة انكماشاً على الذات، أو مجرد دخول في الذات. للصلاة آفاق واسعة. فهي تفترض انفتاح القلب على الآخرين وعلى احتياجات البشرية وعلى معاناة الكنيسة. هي مكان تلتقي فيه أفراح البشر وآمالهم وآلامهم ومعاناتهم. وعلى المصلّي أن يحمل هذا العبء أمام الله.

من هنا نقول أن الاهتمام الأول في "طريق الكمال" هو تربية الحسّ الكنسي عند الجماعة التأمّلية، وتغذية اهتمام المصلّي بشخص الآخرين وهمومهم. وهكذا يُفتح أمام الصلاة وأمام المصلّي مجال واسع جدا للعمل. تقول تريزا أنَّه لا معنى لوجود مجموعة تأمّلية دون أن يكون لها بُعدٌ راعوي قوي.

= الدرس الثاني المهم هو: يجب - كي نصلّي - أن نُلقي بحياتنا كلِّها في الصلاة. ليست صلاة الإنسان المسيحي أمراً منفصلاً أو مستقلاً في حياته. الصلاة تحقيق للبُعْد اللاهوتي للحياة المسيحية، لا في فترات الصلاة واللقاء الشخصي مع الله فحسب، بل في صُلب نسيج الحياة والعمل والخدمة اليومية.

لذا تعرض تريزا على المبتدئ إنجيل الفضائل، وبالذات ثلاثاً منها: المحبة والفقر والتواضع. إنه برنامج صغير لكنّه مُلْزِم وفعّال، ويهدف إلى التربية على علاقة سويّة مع الآخرين (المحبة)، ومع الأمور والقيم النسبيّة (الفقر بالروح والتجرّد) ومع الذات (التواضع الذي هو طريق الحقيقة). وما دامت الصلاة علاقة صداقة مع الله، فلا تظنّ أنك تحبّ الله - تقول تريزا - إن لم تكن ملتزماً أيضاً بحبّ الآخرين. عليك أن تكون حراً من الداخل، قبل أن تفتح حياتك على الله وأن تقدِّم له ذاتك، حراً من أيِّ شكل من أشكال العبودية، وحراً من التعلّق بالأمور المادية تعلقاً زائداً. (تجرد من كلِّ شئ كي تعطي كلَّ شئ لمن هو كلُّ شئ) . أخيراً عليك أن تستعمل لغة الحقيقة إن أردتَ أن تتكلّم مع الله. لا بل عليك أن تسير في الحقيقة وأن تعرف نفسك، وأن تقف على حقيقة نفسك. هكذا يمكنك أن تقف في حضرة الله دون أقنعة ودون

تواضع مزيّف، لا بل في بهاء الحقيقة التي تحرِّرُك من الداخل. تقول تريزا إن الفضائل الثلاث المذكورة - المحبة الأخوية والفقر الداخلي والحقيقة في الحياة - هي التُّربة المناسبة لازدهار الصلاة ونموّها.

= هنالك نصيحة أخرى يجب الكلام عنها قبل أن نطرق موضوع الصلاة مباشرة. يجب على المبتدئ في الصلاة أن ينتبه إلى السطحية، والى الأزمات السهلة، وإلى سراب النجاح في الصلاة في بادئ الأمر. لذا يجب العمل على تربية الإرادة لسببين: أوَّلهما لأن الصلاة ليست عملية سهلة أو قصيرة الأمد، كصراع يعقوب مع الملاك في الحلم. فالصلاة عملية صعبة وطويلة طولَ تاريخ الخلاص نفسه. والسبب الثاني هو: بما أن علاقة المصلّي تهمّ القلب أولاً، فالصلاة ليست في أن تفكّر كثيراً بل في أن تحبّ كثيراً. من هنا تكرّس تريزا أكثر من فصلٍ من كتابها لتعلِّم المبتدئ موقِفَيْن في الصلاة تعبّر عنهما بصورتين: "العطش إلى الماء الحي" و "الروح المجاهد". يجب أن نعطش إلى نبع الماء الحي (المسيح). من هنا لا غنى عن إرادة قوية تُكتسَب بجهدٍ مثابرٍ وطويل، مع التركيز على أمرين: "الرغبة" و "الجهاد" . ولا يجوز أن نخفِّف من هذه الرغبات في حياة المبتدئ في الصلاة:

" كانت رغباتي دائما كبيرة" .

"الماء الحي" هو الصلاة نفسها من حيث أنها علاقة مع الرب. هو " النبع". "والعطش" هو - لاهوتياً- الرجاء الحي و - نفسياً - الرغبات الكبيرة حتى في أكثر الأوقات جفافاً. وفي نفس الوقت لا بدَّ من التَّصميم وقوة الإرادة وعدم التقهقر في مسيرة الصلاة. تصف تريزا هذا الأمر في كتابها "طريق الكمال" برمزين هما: " القصر" و"الصراع". فهي تقول للجماعة المصلّية: "نحن نجاهد حتى ولو كنّا محصّنات داخل الدير" . فالصلاة تشبه لعبة الشطرنج حيث يستسلم الله تعالى أمام الصلاة المتواضعة والمثابِرة. وما هذه الأخيرة سوى العزم الثابت الذي لا رجوع فيه، أمام الذات وأمام الله، على عدم ترك الصلاة مهما كلَّف الأمر، "حتى لو انهار العالم كله" ...

= وهكذا يصل الكتاب إلى معالجة الأمر الرئيس، بعد أن تكلّم بإسهاب عن شخصية الإنسان المصلّي: كيفية الصلاة. تبدأ تريزا بنصيحة غريبة: ابدأ بصلاة " أبانا". تقول: " لنبدأ بتلاوة أبانا مع بعض" . ونرى تريزا - في

القسم الثاني من الكتاب - تصلّي مع المبتدئ طلبات الصلاة الربيّة، وذلك بطريقة عملية وخاصّة.
* إنَّ درجات الصلاة الأساسية الثلاث - الصلاة اللفظية والصلاة العقلية والتأمّل - درجات متتابعة لعملية واحدة. فأنت بصلاتك " أبانا" عليك أن تتمرّن على الصلاة العقلية. ونفس طلبات "أبانا" تقودك إلى ممارسة التأمل. يكفي أن تقول كلمة " أب" أو " أبانا" مع الابن، ليتفجَّر في داخلك غِنى التأمل. وتعطي تريزا مثلاً أمام القارئ في تلاوة الصلاة الربية تلاوة تقود إلى التأمل. ثم تدعو القارئ إلى أن "يجرّب" هو أيضاً:
"أعرِفُ شخصا لا يعرف أن يصلّي ألا صلاة لفظية. وكان مرتاحاً في ذلك إلى درجة أنه كلّما انقطع عن تلاوة الصلاة اللفظية، شرد ذهنه وصَعُبَ عليه تجميع أفكاره في الصلاة. ليت صلاتنا العقلية تكون بنفس درجة الكمال التي كانت عليها صلاته اللفظية! كان يقضي ساعات في صلاة أبانا - وصلوات أخرى بسيطة - وهو يفكّر فيما عاناه الرب في سبيل خلاصنا. أتاني يوماً ما هذا الشخص، متألماً من أنه لا يحسن التأمل ولا يعرف أن يصلي إلا صلاة لفظية. سألته ماذا يتلو في صلاته: عندها اكتشفت أنه استطاع - دون أن يعلم - الوصول إلى أعلى درجات التأمل من خلال صلاة "أبانا"... شكرت الله بسببه وتمنّيت أن أمارس الصلاة اللفظية على مثاله".
* أِعلَم ثانياً أن صلاة "أبانا" هي صلاة يسوع التي تصبح صلاتك أنت عندما تتلوها بفمك. وهي تُدْخِلُك في مشاعر يسوع البنوية. فأنت لا تصلّي وحدك. مهمٌ جداً أن تعلم أنك تتّجه بصلاتك إلى الآب بوساطة يسوع. مهمٌ أن تعلم أنك بحاجة إلى وجود الشخص الآخر كي تعرف أن تصلي. وبدون وجود المعلِّم، تواجه خطر الوحدة في صلاتك، وخطر الفراغ الداخلي والضياع في عالم أفكارك. لذا تخصِّص تريزا فصلاً كاملاً من كتابها للكلام عن أهمية "وجود المسيح ومشاركته" في صلاة الإنسان المسيحي. فنحن لا نستطيع أن نقول "أبانا" إلاّ معه وفيه.
* تقوم صلاة " أبانا" اللفظية بدور تربوي مهم فيما يختص بمضمون الصلاة. لا شك أنك عندما تتلو أيّة صلاة لفظية - مزمور ارحمني يا الله أو المَجْدَلة مثلاً - تجعلها صلاتك الشخصية، وتشارك من خلالها في كلّ الغِنى

الروحي الذي وضعه ألوف الأشخاص غيرك في تلاوة نفس الصلوات، لكن صلاة "أبانا" تختلف. فهي تجعلك تشارك في مشاعر يسوع وعواطفه وأفكاره وروحه البنويّة. تدخِلُك في عالم علاقاته المتميزة مع أبيه، وفي خضوعه لمشيئته وفي صلاته الكهنوتية، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لذا تعتقد تريزا أن صلاة "أبانا" تحوي تعليماً كاملاً عن الصلاة المسيحية، وأنها أول الطريق للصلاة التأملية، ومنهاج سليم للدخول في صلاة الكنيسة.

* ومن خلال تلاوة صلاة أبانا، وبالذات من خلال الطلبة الأولى: " أبانا الذي في السموات، أي في سماء نفسي"، تعالج تريزا الموضوع المركزي من الكتاب: الصلاة الداخلية، الصلاة في الروح والحق، الدخول في "سماء النفس"، بُغية التوجه نحو الله المتواجد في الداخل تواجداً مباشراً ومحبّاً. تلك هي الفصول الأساسية في الكتاب (الفصول 26 - 29). نجد في هذه الفصول التعليم حول الخشوع الداخلي في الصلاة - والذي هو عتبة التأمّل - ويطلق عليه البعض اليوم لقب "اليوغا التريزيّة" .

فتريزا متصوّفة من الطِّراز الأول. لهذا نراها في غاية الحساسيّة لسرِّ الله ولوجوده في الإنسان. وهي تعتقد أن التأمّل هو نقطة الوصول اللازمة لكل إنسان يصلّي. لا بل التأمل هو خشبة الخلاص عندما تعترض الصلاةَ أزماتٌ أو جفاف. من هنا تجد طبيعياً أن تهتمَّ بالمبتدئ في الصلاة، لتصل به إلى ميناء التأمل. وما هو التأمّل سوى إيقاظ الحسِّ بالله في داخل الإنسان وإنمائه؟ ثمَّ العمل على تقوية القُدرة على الاندهاش أمام الله، والصمت والسجود أمام عظمته اللامتناهية، ثم إعداده تدريجياً لقبول ما يمنحه الله من خلال عمل الروح القدس... كي يحرِّره في النهاية من ثِقَلِ الحواس ومن تشتتات الأفكار الخارجية، ويجعله يستسلم لله قائلا: "ليأتِ ملكوتك"، " لتكن مشيئتك". وهكذا يمكن للمصلي أن يعيش في حالة تأمل دائمة في حياته، ووضوح رؤية عملية في تصرفاته.

لا شكّ في وجود شَبَه بين ما قلناه وبعض تمارين ال"يوغا" المطبّقة حالياً على الصلاة المسيحية. لكن هناك فرقاً شاسعاً بين رياضة ال"يوغا" وروح الخشوع والتأمل الذي نحن بصدده. فالتأمّل حسب القديسة تريزا

يشترط دوماً الحوار بين شخصين، حتى في أكثر حالات التأمل عمقاً وخشوعاً. فهو يتحقّق في العلاقة بين شخص المسيح وشخص الله، ولا يتحقّق أبداً في الدخول إلى الذات للهروب من عالم الحواس، والتحرر من الذات بهدف التحليق في عالم المطلق. لا بل إن شخص المسيح الذي نجده في أعلى درجات التأمل، مُتَّحدٌ بطبيعته البشرية وبآلامه وبكلمته وبمشاعر قلبه البشرية وبجسده ودمه...

لذا تميّز القديسة فترتين في التربية الأوليّة على الخشوع في الصلاة. تدور الأولى حول المسيح والثانية حول النفس البشرية. أن "يخشع" الإنسان معناه أن يركّز اهتمامه أولاً على المسيح، أن ينظر إليه، وأن يدخل بنظرة الايمان في حقيقة حضوره الفعلي والمحِبّ والفعّال في شخص المصلّي. من ناحية أخرى يعني الخشوع الولوج في العالم الداخلي لإعادة اكتشافه - العودة إلى القلب كما يقول القديس اغسطينوس - بشعور يقين أن عالمنا الداخلي مأهول، إذ أننا هياكل الروح القدس الذي هو أقرب إلى ذواتنا من ذواتنا، مع التأكيد دوما على وعد المسيح ب "أننا سنأتي إليه ونجعل لنا عنده مقاما".

هكذا يلتقي بُعدا الخشوع: فالمسيح ينتظرنا بصبرٍ في داخلنا. وهكذا نستطيع بانجذابنا إلى مركز داخلنا المأهول بالمسيح، أن نتخطّى الحاجز الذي يفصل بين الروح والحسّ فينا، بين المادّي والروحي، وأن تكون صلاتنا لا بالقول والافكار والاحاسيس فقط بل بتقدمة ذواتنا كلّها.

تتكلّم القديسة تريزا لاحقاً عن هذا الموضوع بإسهاب في كتاب خاص اسمه "الحصن الداخلي" .

* وتصل القديسة أخيراً إلى الصلاة الليتورجية. وتتكلّم عنها في صدد صلاة " اعطنا خبزنا كفاف يومنا" التي تجعل مركزها الروحي في الافخارستيا، "الخبز الجوهري" الحقيقي في كل صلاة. تعتقد تريزا بقوّة أنه لا يمكن أن يوجد زمن أو أسلوب صلاة أنجع من الافخارستيا للخشوع والتأمّل. فالافخارستيا تجعل المسيح حاضراً وتجعل حضوره حقيقياً، وتضعنا أمام حقيقة طبيعة يسوع البشرية، وأمام سرِّ تنازله ابتداءً بسرِّ تجسده، ومروراً بسرِّ موته وقيامته، وانتهاءً بالافخارستيا التي هي سرّ وجود الله الخفيّ بين البشر... تسمح لنا الافخارستيا أن نتعمق داخلياً - بشكل ماديّ ملموس - في

حضور المسيح وشخصه فينا، وتجعلنا نشترك في صلاته فينا ومن أجلنا، كي نقدِّمها نحن أيضاً إلى الآب. وهكذا نعود إلى مهمّة الشفاعة الأساسية في كل صلاة وكل تأمّل: أعني الصلاة وتقدمة الذات من أجل العالم ومن أجل الكنيسة.

هذه هي الإمكانات الروحية التي تقدِّمها الافخارستيا للإنسان المصلّي: الاتحاد بالمسيح قولاً وعملاً، سجود وتعمّق في سرّ تواضعه، يدعو إلى الدخول في عالم المصلّي الداخلي، معنى كهنوتي وكنسي للصلاة... هنا تُسهب القديسة - باسم راهباتها التأمليات - في صلاة افخارستية مطوّلة تشكّل مثلاً تطبيقياً على ما قالته في موضوع الصلاة.

* يعرض الدرس الأخير في الكتاب كيفية مكوث المصلّي في حضرة الله. فالحسّ الكنسي هو أساس التأمل كما أن الحسّ بوجود الله الحاضر دوماً هو مصبّ الصلاة الأخير. هنا تفسّر تريزا جملة"لكن نجنا من الشرير". الشرير هو الخطيئة. وهذا أمرُ ينطبق على كلِّ إنسان، وينطبق بنوع خاص على الإنسان المصلّي. فالحياة تعرِّضنا دوما للخطيئة ولنتائج الخطيئة. تعتقد تريزا أنها إنسانة عادت إلى الإيمان بعد حياة خطيئة لذا نراها تنعم بحسٍّ مُرهف عندما تتكلم عن عالم الخطيئة وعن مخاطر الخطيئة في الحياة اليومية. وكي تحمي ترزيا الإنسان المصلّي من الخطيئة، تتكلم عن "المحبة ومخافة الله"، وهما أمران من شأنهما أن يعمِّقا في حياة الإنسان الحسّ بسموّ الله وبقداسته: الله وحده هو القدوس، انا لست بشيء، وفي نفس الوقت، يجب تعميق الحسّ بوجود الله المحبّ في حياة الإنسان فهو "يقيم" فيّ هو الصديق هو المحب هو الاب هو الأخ. من هنا شعورا المحبة والمخافة اللذان يلتقيان مع ما قاله القديس اغسطينوس عن مخافة الله والرغبة الجامحة فيه، هما شعوران لا يستطيع الإنسان الذي يقترب من الله إلاّ أن يعيشَهما.

خاتمة

خاتمة الكلام جوابان بسيطان على السؤال التالي: ما هي الصلاة؟ وما هي رسالة الصلاة الراعوية؟

* الصلاة هي أن نعيش - كمسيحيين - علاقة شخصية مع المسيح، علاقة ابتدأت فينا في المعمودية، وتنمو في خبرة كلمة الله وفي حضوره وفي عمله

الخلاصي، كي نحقّق فينا الخضوع لله الآب وكي نخدم الكنيسة.

* تقوم رسالة الصلاة الراعوية بأن نربّي في حياة المؤمن الحسّ بهذه العلاقة مع المسيح ومع الثالوث ومع الكنيسة، علاقة مؤسسة على المعمودية. وهذا أمرٌ لا يمكن الوصول إليه دون خبرة صلاة شخصيّة وعميقة.

تلاميذ إلى الأبد
القراءة الربّانية (تأمّل)

الكاردينال مارتيني

ليس سهلاً على المرء أن يتكلّمَ في هذا المكان الذي صلّى ووعظ فيه القديس يوحنا الصليبي، أكبرُ شاعرٍ صوفيّ في تاريخ المسيحية. نشعر أمام قبره وفي الأماكن التي تقدّست بحضوره وبعمله الكهنوتي، نشعر بالرهبة وباحتباس النَّفَس. نتّجه إليه إذاً ونطلب شفاعته ومساعدتَه في طريق صلاتنا التي هي أكثر بساطة من صلاته .

طُلب منّي أن أتكلَّم عن يوحنا الصليبي كمعلِّم للصلاة، ثم عن الكاهن كمعلم للصلاة. وأنا في الواقع أعرف القديس يوحنا الصليبي معرفة محدودة، بالرغم من إقراري بأنه معلِّم صلاة من الطراز الأول. زد على ذلك قلّة خبرتي في التعليم على الصلاة، وعلى الصلاة التأمّلية بنوع خاص. لا شكّ أن معلّمي الصلاة نادرون في أيامنا الحاضرة، ولو أن الحاجة إليهم ملحّة. وكثيراً ما كان القديس يوحنا الصليبي يتألّم من الضَّرر الذي سبّبه أناس كانوا يدّعون انهم معلّمو صلاة.

"هذا أمر يجلب ضررا من الصعب تخيّل حجمه. وهو مع ذلك أمر منتشرٌ بكثرة. فأنت نادراً ما تجد معلِّماً روحياً حقيقياً، لا يسبّب ضرراً للأنفس التي يوكلها الله إليه في موضوع التأمل"0

نريد أن نكتفي - من خلال مثلِنا وكلامِنا - بتعليم الصلاة بالمعنى العام، ثم الصلاة الليتورجية، وأخيرا "القراءة الربّانية". لذا أدعوكم إلى الاستفادة من نعمة هذا المكان المقدس، وذلك بمراجعة مسيرتنا في الصلاة التي منها تنبع إمكاناتُنا - الكبيرة أو المحدودة - في تعليم غيرنا طرق الصلاة. ومسيرة الصلاة التي أتكلم عنها ليست الصلوات العامة التي نترأسها، والتي تتحكَّم فيها حركات وإيقاعات معينة، بل صلاتنا الشخصية التي نقف فيها في حضرة الله، بعد أن نكون قد أغلقنا الباب علينا. وأقصد بذلك أن الصلاة الشخصية الصامتة أساسية إن أردنا أن نكون معلّمي صلاة.

في نهاية إحدى اللقاءات حول موضوع الصلاة، أعجبني أحد الحاضرين عندما اقترح أن يخصّص الكاهن ساعتين يومياً للصلاة الشخصية. صلاة لا نقدِّم فيها حساباً لأحد، ولا يراها أحد، ولا يعرف بها أحد، مع أن نتائجها الإيجابية تنعكس على الآخرين وتجعلهم يشعرون إن كانت صلاة الكاهن عميقة أم لا.

صلاة الكاهن الشخصية

أُحدّد الموضوع بسؤال: "هل هنالك مسيرة صلاة شخصية؟" هل هنالك مسيرة معينة في نوع الصلاة التي ندعوها: "القراءة الربّانية"؟ نحن كهنة، ويهمّنا أن نعرف الجواب على هذا السؤال.

أعود وإياكم إلى فقرتين من السينودوس الأبرشي[1] السابع والأربعين. تبتدئ الفقرة 475 بهذه الكلمات: "الكاهن هو أولاً تلميذ" . والتلميذ هو الذي يتعلّم ويتدرّب، وتدريبه لا ينتهي. أما الفقرة 499 فتذكر بالتحديد أن "القراءة الربّانية" هي أفضل صلاة للكاهن: "فليهتمّ (الكاهن) بقراءة الكتاب المقدّس، وليتمرّن بالتحديد على القراءة الربّانية". وهكذا نستطيع أن نخوض في موضوعنا.

تعود بي الذاكرة إلى أوّل حديث أجريته مع كهنة أبرشيتي في زمن الصوم عام 1980. كنت عندئذٍ في بداية عملي الراعوي، وشعرت بالحاجة إلى الالتقاء بالكهنة من مختلف مناطق الأبرشية. قلت لهم عندئذٍ (وقد ظهر ذلك لاحقاً في كتاب "من الدعوة العمّادية إلى الدعوة الكهنوتية")، أنَّ الكاهن تلميذ ينمو ويمرُّ من حال الموعوظ إلى حال المعمّد إلى حال المبشِّر إلى حال المسئول عن جماعة. وطابقتُ بين هذه الحالات الأربع والأناجيل الأربعة: مرقس هو إنجيل الموعوظين، ومتى إنجيل المعلمِّ ولوقا إنجيل المبشِّر ويوحنا إنجيل الكاهن. ومع التأكيد على الميزات الخاصة بكل إنجيل، أظهرْتُ كيف يقابل كلُّ إنجيل منهم فترةً من حياة التلميذ المسيحي الذي ينمو نحو مل ء كهنوت الخدمة، كما أظهرتُ أنماط الصلاة الخاصة بكل مرحلة

---

[1] لأبرشية ميلانو في شمال ايطاليا.

من المراحل الأربع المذكورة.

أظنّ أن ما قلته قبل خمس عشرة سنة ما زال حيَّاً وقابلاً للتعميق والتطبيق. لا أُريد، بالتأكيد، أن أعيد ما قلته آنذاك، لكني أُريد فقط أن اركّز على مبدأ التدرّج في القراءة الربّانية. وهذا ما نريد أن نقوم به، ليعرف كلّ واحدٍ منّا أين هو بالتحديد في هذه المسيرة.

القراءة الربّانية

تعطي رسالة اللجنة الحبرية للكتاب المقدس حول "تفسير الكتاب المقدس في الكنيسة" بتاريخ 1994/4/15 تعريفاً رسمياً للقراءة الربّانية:

"القراءة الربّانية هي قراءة يقوم بها فردٌ أو جماعةٌ لنصٍ طويلٍ أو قصير من الكتاب المقدس، على اعتبار أنها كلمة الله تنمو بقوة الروح القدس في الصلاة والتأمل".

أتساءل أمام هذا التعريف الجميل والزّخم: هل للقراءة الربّانية مراحل في المسيرة الروحية، وبالخصوص في النضوج من وعي المعمودية إلى وعي الكهنوت؟ أعتقد أن الجواب إيجابي، وأن المراحل ثلاث: ترتكز الأولى منها على القراءة والثانية على التأمل والثالثة على المشاهدة. لا توجد قراءة ربّانية دون هذه المراحل الثلاث، التي هي مراحل متتابعة ومتداخلة.

* **المرحلة الأولى**- وهي مرحلة لا غنىً عنها - تركِّز على القراءة. فمعرفتنا بالكتاب المقدس هزيلة، ونحن نحتاج إلى قراءته أكثر من مرة، مع إعادة وضع الفقرة الكتابية في إطارها الكتابي أو التاريخي أو الجغرافي، مستعينين بذلك بشروحاتٍ جيدة. ونحن - كشعب مسيحي وككهنة - متأخِرون في ممارسة هذه المرحلة. لذلك نحن نسمع الكتاب المقدس، لكنّنا لا نعرفه جيداً.

ونتساءل: "هل كانت تريزا الأفيلية تمارس القراءة الربّانية؟ لا سيّما أنها عاشت في مرحلة الإصلاح البروتستانتي الذي استمرّ قروناً طويلة؟ نحن نعلم أن قراءة الكتاب المقدس كانت محظورة على العلمانيين. كان المثقفون من الكهنة فقط يستطيعون قراءة العهد القديم في ترجمته اللاتينية المعروفة بـ "الفولغاتا". لذا نرى القديس يوحنا الصليبي يستشهد كثيراً بالكتاب المقدس، بعكس القديسة تريزا. يجب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الظرف التاريخي المحدَّد. تبدّلت الأمور الآن، وأنا على يقين أنه لو عاشت تريزا في وقتنا الحاضر لاستلذّت بقراءة الكتاب المقدس على مثال تلميذتها القديسة تريزا الطفل يسوع، التي كانت تستغلّ أية فقرة من الكتاب المقدس، بالرغم من أنها - في الوقت الذي عاشت فيه - لم تكن تستطيع الوصول إلى جميع كتب العهد القديم.

نحن نعيش وقتاً متميّزاً. توجد بين أيدينا كلُّ كنوز الكتاب المقدس، وفي الترتيب الذي اتُبعه المسيح مع تلميذي عماوس: من موسى إلى الأنبياء إلى المزامير. هذه هي إذاً المرحلة الأولى وهي، كما قلنا، أساسية، وإلاّ اخترع كل واحد منا مسيحاً خاصاً به، مطابقاً لمشاعره وأحاسيسه، وبعيداً عن المسيح الذي ظهر في الجسد في تاريخ البشر. فنحن نلمس جسد المسيح في حقيقتين لا تنفصلان، هما الإفخارستيا والكتاب المقدس. ومن يحاول فصل هاتين الحقيقتين يتعثّر في مسيرته الروحية. وتدعونا الكنيسة إلى ممارسة هذه المرحلة نفسِها من خلال قراءات القداس وقراءات ليتورجية الساعات.

* **القراءة** لا تنفصل عن **التأمل/الصلاة**. وهذه هي المرحلة الثانية. عندما تأخذ مرحلة القراءة نصيبها الوافي من الوقت والتفكير، يُصبح النصّ الكتابي قريباً منا، ونلاحظ بعد فترة أنَّ صبغة التأمل تأخذ دوراً أكبر. فالنص الذي اعتدنا عليه يبدأ بإعطائنا سلسلة رسائل شخصية. وهكذا نستطيع التوقّف عنده وقتا أطول، لتذوق معناه الأساسي الذي يدور دوماً حول سرِّ المسيح المائت والمنتصر على الموت، سرٌّ تعبِّر عنه النصوص الكتابية في أكثر من شكل. أستطيع هكذا أن أفهم ماذا يعني هذا النص لي شخصياً وأن أتكلم من خلاله مع يسوع الذي يكلّمني هو أيضاً من خلال النص نفسه. ومما لا شكّ فيه أن

الدراسات الكتابية والتفسيرات اللاهوتية المختلفة تعطى لهذه المرحلة الثانية غنى روحياً عميقاً.

* ما يميّز المرحلة الثالثة هو **المشاهدة**. إن كنّا أُمناء وجدّيين في المرحلتين الأولى والثانية، ندخل في خبرة المشاهدة. هذا ما تتكلّم عنه القديسة تريزا بعد خبرة جفافٍ وعذابٍ ومعاناةٍ روحية دامت ثماني عشرة سنة. تأتي لحظة نشعر فيها وكأنَّ النصّ الكتابي اصبح شفافاً. هذه خبرة صعبة ودقيقة، تسبقها صعوبة يشعر فيها المرء أنه غير قادر على الصلاة وعلى ممارسة القراءة الربّانية، لا بل يشعر أنَّ النصّ لا يعني له شيئا البتّة. هذا ما تكلَّمَتْ عنه تريزا ويوحنا الصليبي، وهو ما دعياه ليل الحواس أو ليل الروح. لنقرأ ما يقوله يوحنا الصليبي في الفصل الثالث عشر من كتابه **صعود جبل الكرمل**: " المهم هو أن تكتشف النفس علاماتٍ محدّدة تعرف من خلالها أن عليها ترك التأمل والقراءة وتمر إلى مرحلة المشاهدة".

هذا لا يعني أن مرحلتي القراءة والتأمّل دون فائدة. لكن هنالك مرحلة معيّنة يجب فيها المرور إلى ما هو أبعد. وهذا أمر يجب على معلّم الصلاة أن يعرف كيف يميّزه.

"لكي لا تبقى العقيدة المعروضة على النفس ضبابية، يجب أن يعرف الإنسان الروحي الوقت الدقيق الذي ينبغي عليه فيه أن يترك القراءة والتأمل واستعمال الصور والرموز، وذلك بإلهام من الروح القدس".

المهم أن لا يحدث ذلك قبل الوقت الذي يريده الله ولا بعده. لأنه إنْ حدث قبل الوقت كان سبب ضياع للمصلّي، وان حدث بعد ذلك كان سبب معاناة لا فائدة منها. "كما أنه ضروري لكي نلتقي بالله أن نترك الصور والرموز التي قد تكون عائقا يحول دون هذه اللقاء، فانه من المناسب ألاّ نترك التأمّل قبل الوقت كي لا نتقهقر في موضوع الصلاة."

ثم يشير القديس يوحنا الصليبي إلى العلامات التي تُظهر أن وقت المرور قد حان: النفق المظلم وليل الحواس الذي قد يستمر مدّة طويلة. ونحن بحاجة في هذه المرحلة إلى معلّم صلاة متمرّس كي يساعدنا.

ما قلناه عن المشاهدة ينطبق إلى حدٍّ ما على القراءة الربّانية. يمكن أن نصل بالروح إلى حدٍّ معيّن تصبح فيه القراءة الربّانية نوعاً من المشاهدة (يتكلم يوحنا الصليبي في هذا الصّدد عن الراحة أو الصمت أو الاستغناء عن الصور والاتحاد الهادئ والمريح مع الرب)، مع استمرار الحاجة إلى الصور والتشابيه والرموز، عندما تكون العملية عملية تربية على الصلاة. وهنا لا بدَّ من الإقرار بوجود تمايز بين الأشخاص، وبضرورة أن يساعد المتقدّمون في مسيرة الصلاة غيرهم من الذين لا يزالون يتلمّسون خطواتهم.

يبدو إلى اليوم أن يوحنا الصليبي يخاطبنا ويستحثّنا: اقبلوا بفرح كنز الكنيسة هذا المدعو القراءة الربّانية. مارسوها وتقدّموا فيها إلى حدّ الوصول إلى مراحلها السامية، لتدخلوا في ليل سرّ الله العميق. هذا السرّ الذي نتذوّق طعمه ونحن نعيش في هذا المكان المقدس. وأريد في هذه المناسبة أن اقرأ لكم نصاً آخر من يوحنا الصليبي:

"ما أكبر خطأ الأشخاص الروحانيين الذين - بعد أن تَمرَّسوا، كما ينبغي، على الاقتراب من الله عن طريق الصور والتشابيه والتأمل - يرفضون أو يتردّدون عندما يدعوهم الله إلى كنوز روحية أعمق، ويحرمهم لذلك من لذة التأمّل، أو لا يعرفون كيف يُقلِعون عما اعتادوا عليه... فهم في ذلك يخسرون الكثير ولا يجنون أيَّ ثمرٍ يُذكر".

ليعطنا الله أن نقوم بمسيرة صلاة وتأمّل حقيقية، تحملنا على أن نتذوّق شيئاً من حقيقة رسالة القديس يوحنا الصليبي.

خاتمة

= ليست القراءة الربّانية نهجاً ثابتاً يتعلّمه المرء ويقف عنده، بل مسيرة تقوده بعيداً وعالياً. نتساءل في صمت: هل أسيرُ فعلاً؟ هل أنا كاهنُ تلميذ؟ هل ما زلت أتعلّم طريق القراءة الربّانية؟

= مسيرة القراءة الربّانية مسيرة موازية لمسيرة النمو في الإيمان والرجاء والمحبة، ولمسيرة النمو في حياة الروح. هي شكل مميّز من الحياة المسيحية، تتّحد بها وتصبح وإياها نفس الحقيقة. لذا عندما نسأل أنفسنا عن مسيرتنا في القراءة الربّانية، نسأل أنفسنا في نفس الوقت عن مسيرة إيماننا ورجائنا ومحبتنا. السؤال صعب، وأطرحُه بالشكل البسيط التالي: "ما الذي يفرّحني وما الذي يحزنني؟" جوابي هو الذي يحدّد مكاني في مسيرتي حسب الروح.

= مهمٌ جداً أن نسترشد بمعلِّمين في الصلاة كي لا نتيه أو نخطئ في تحديد مكاننا في مسيرة صلاتنا. وهذا يساعدنا لكي نعلم إن كان التعب أو النفور الذي نشعر به في الصلاة ناجماً عن كسل أو عن نعمة، عن إهمال أو عن هبة الهية. ووجود معلِّمٍ بجانبنا يساعدنا في تمييز وضعنا الحقيقي، كي لا نتقهقر روحياً.

نحن موجودون هنا كي نعي وعياً متزايداً أهمية الرسالة التي عهد الله بها إلينا، بشفاعة القديس يوحنا الصليبي: كي نكون نحن أولاً تلاميذ في طريق الصلاة التي لا غنى عنها، والتي أصبحت نادرةً اليوم في حياة الكنيسة، وكي نتذوّق بواكير الهدف البعيد لهذه الطريق: الاتحاد العميق بالسيد المسيح.